16 em Année No. 758 | Lundi — 12 — 1 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٥٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ صفر سنة ١٣٦٧ — ١٢ يناير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

لا تَعَـــلُّوا

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

شدّ ما فزعتُ حين قرأتُ فى صدر الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) نبأ تلك المحاولة الجديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب (أى مراكش) . وقد آثر الموحى بهذا المقال أن يسمى هذا الأمر « محاولة جديدة » ولكنى أعلم أنها ليست سوى « حيلة » أخشى أن تغرر بكثير من قراء العربية ، لقلة اطلاعهم على أنباء هذا الشعب الأبى السجين الذى ضربت عليه فرنسا نطاقاً من الكتمان والصمت ، لم يضرب على شعبٍ قطّ فى هذه الدنيا ، ولا فى بلاد السوفيت . وأنا أحب أن أكشف الغطاء عن هذه « الحيلة » التى يُرادُ بها تضليل الناس عن حقائق كالشمس ظاهرة لكل من متعه الله بنعمة البصر . وأحب أن أصفى هذا الكلام لقرّاء « الرسالة » لأنهم همُ الفئة الحية التى تقرأ لتعلم وتعمل بما تعلم .

فهذا الشيء الذى سماهُ بعضهم « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، ليس شيئاً سوى محاولة من فرد واحد يعاونه قليلٌ من الناس على إحداث خرق فى إجماع أمة كاملة ، وصدع بنيان مرصوص لم أعلم فيه إلا خيراً وتماسكا وبقاء على كلمة الحق التى لا تزول ، وهى « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » إن كان ثمة حاجة إلى مفاوضة أو معاهدة .

وبلاد المغرب ثلاثة : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وفى كل قطر من هذه الأقطار الثلاثة حزبٌ له الكثرة الساحقة ، بل لا يكادُ يوجد فيه أقلية حتى نقول إن لهذا الحزب كثرة ساحقة ، بل الحزبُ هو الأمة ، وهو التعبير الصادق عنها . وهذه الأحزابُ لا يمكن أن تسمى أحزاباً بالمعنى المعروف فى مصر والذى كان وليد الاحتلال البريطانى الذى فرّق الكلمة وباغض بين القلوب .

ففى تونس الحزبُ الدستورى ، ورئيسه الحبيب بورقيبة . وفى الجزائر حزبُ الشعب ، ورئيسه أحمد مصالى الحاج ، ومندوبه فى مصر والسودان هو الشاذلى المكى . وفى مراكش حزبُ الاستقلال ورئيسه محمد علال الفاسى . وفى المنطقة الخليفية عن مراكش حزبُ الإصلاح ورئيسه عبد الخالق الطريس . وهذه الأحزابُ هى المعبرة عن بلاد المغرب كلها ، ورؤساؤها جميعاً مقيمون الآن فى مصر ، وجميعهم على رأى واحد قد أذاعوه فى كل وقت وفى كل بلد ، وهو « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » وهم جميعاً لا يزالون إلى هذه الساعة على هذا الرأى لم يتحوّل عنه أحدٌ منهم ، ولن يتحوّل بإذن الله . وإجماعُ هؤلاء الرجال هو إجماع أمم المغرب كلها ، شعوباً وأفراداً . وهؤلاء الرجال هم الذين شرّدتهم فرنسا أو إسبانيا وسجنتهم ونفتهمْ واضطهدتهم ، وباعدت بينهم وبين أهليهم وحلائلهم وأبنائهم ، وأرادت أن تقصم أعوادهم فلم تجد إلا بأساً ومضاء ومصابرة وجهاداً فى سبيل

الحق الأول لكل شعب وهو الحرية والاستقلال . وهؤلاء الرجال هم الذين بقوا إلى اليوم لا ينخدعون بما انخدعت به أمم من قبلهم من مفاوضات ومعاهدات ومحادثات ، وسياسات خربة خراب ذمم اليهود . ومن هؤلاء الرجال وحدهم يؤخذ حديث مابين فرنسا والمغرب ، وعلى هؤلاء الرجال وحدهم يعتمد ، وإلى هؤلاء الرجال وحدهم تلتفي شعوب تونس والجزائر ومراكش بالقيادة ، بعد أن جرّبتهم وعرَفتهم واطمأن قلبها إليهم وإلى ما يأتون وما يذرون . وهم قوم لا يفتات عليهم ، ولا يقضى على شعوبهم وهم غُيَّب . وهم رجال يعملون ولا يدّعون ولا يتظاهرون ، ولا يخادعون الناس بشيء لم يكن ، أو بسلطان لهم لم ترضه بلادهم وشعوبهم ، وهم قائمون على الدعوة إلى تحرير بلادهم ، ولهم مكاتب في مصر والشام ، وفي فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، لم تزل تتكلم بالكلمة الواحدة التي لاحِوَلَ عنها وهي : « لامفاوضة إلا بعد الاستقلال » .

فما هو إذن « حزبُ الشورى والاستقلال » الذي اتخذ لنفسه رئاسته محمد بن الحسن الوزاني هداه الله ، واحتمل ثقل النيابة عنه محمد العلمي العربي سدّد الله خطاه . إنه حزب كما تسمى الأحزاب ، ولكني أعلم ويعلم كل من وقف على حقيقة النبأ في بلاد المغرب ، أنه حزب لا يتبعه من شعب مرّاكش أحد إلا من شذ عن إجماع أمة قد جاهدت منذ سنة ١٩١٢ وظلت تقاتل فرنسا وإسبانيا إلى سنة ١٩٣٣ ، لم تضع السلاح إلا بعد أن فنيت صفوة المجاهدين ، وقلّ الزاد وعزّ السلاح وحوصروا حصاراً شديداً أكثر من إحدى وعشرين سنة كاملة .

وما أظن أحداً نسي جهاد البطل الذي أذلّ هامات الإسبان والفرنسيس حتى خدعوه وأمّنوه ثم غدروا به ، وهو الأمير محمد ابن عبد الكريم الخطابي .

إن هذا الحزب الذي قدّم إلى القيم الفرنسي الباغي الجنرال جوان « مذكرة ضافية لتعمل حكومة باريس على تحقيق ما ورد فيها بما يحفظ حسن العلاقات مع فرنسا » لا يعبر ألبتة عن عزيمة شعب مراكش ، بل يعبر عن رأي رئيس الحزب ونائبه وحدهما ؛ فنحنُ نعلم علم اليقين أن حزب الاستقلال ، وحزب الإصلاح في مراكش ، هما صاحبا الرأي الأول والأخير في هذا الأمر الذي يتعلق بإجماع الشعب المراكشي ، وأن الأمة المراكشية كلها من وراء كلمتها : « لامفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، ونحن نعلم أن جلالة محمد الخامس ملك مراكش يعلم أن الشعب مجمع على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال ، وأنه هو نفسه الذي يتولى قيادة الدعوة إلى أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال .

وقد استطاع نائب حزب الشورى هذا ، أعني الأستاذ العلمي ، أن يوجه نظر الصحافة المصرية إلى هذه البدعة التي مضت عليها شهور منذ قام محمد بن الحسن الوزاني داعياً إلى الاتفاق مع فرنسا ، أو على الأصح مظهراً رغبته في الاتفاق مع فرنسا ، بعد ابتعاده عن حزبه الذي نشأ فيه ، وهو حزبُ الاستقلال الذي يرأسه محمد علال الفاسي . وقد نجح الأستاذ العلمي مرتين ، ولكنّ هذه الأخيرة هي أشدهما خطراً . ولو علمت الصحافة المصرية أن شأن حزب الشورى الذي ذكرناه ، لا يكاد يكون شيئاً في بلاد مراكش ، لطوت هذه الصحيفة مرة واحدة ، ولرجعت في حديثها عن شأن مراكش إلى رؤساء حزب الاستقلال وحزب الإصلاح وسائر الأحزاب المغربية في تونس والجزائر ، ولو علمت أن هذه « المحاولة الجديدة » ليست سوى محاولة رجل فرد زعيم حزب ، نعم ، ولكن بغير شعب .

وكان حقاً على هذه الصحف المصرية أن ترجع إلى مكتب المغرب العربي لتقف منه على حقيقة ما تقول ؛ وكان حقاً عليها أن تعتبر هذا الحزب بأشباهه عندنا من الأحزاب التي لا شعب لها إلا رئيسها ، وكان حقاً على هذه الصحف أن تعرف أن سائر رؤساء أحزاب المغرب مقيمون في مصر منفيون عن بلادهم ، فكان لزاماً أن ترجع إليهم قبل أن تنشر أشياء تمزق إجماع أصحاب الحق على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال . وكان حقاً عليها أيضاً ، إذ نسيت أن تفعل هذا ، أن تفكر في شأن رئيس حزب الشورى المفاوض الجديد ، فهو مقيم تحت ظل السلطان الفرنسي هناك في مراكش ، وهؤلاء سائر رؤساء الأحزاب المغربية مشردون منفيون مهاجرون إلى مصر ، لكي يخدموا بلادهم ويجاهدوا في سبيلها وهم بنجوة من سلطان فرنسا . فأي هذين أولى بأن يكون هو المطالب بحق بلاده ؟ وأيهما أولى بأن يؤذن له ويُستمع ؟ وأيهما أصدق تعبيراً عن رغبة الشعب الذي ظل إحدى وعشرين سنة يقاتل في كل بقعة

من بقاع المغرب وحيداً مجهولا حتى تفانى شيوخه وهلك كهوله وذبح فتيانه ، وورّثوا أبناءهم أحقاداً لا تموت على فرنسا وعلى الطغاة من أشباهها .

وهؤلاء الزعماء الذين ذكرناهم آنفاً هم بقية السيف ، وهم المشردون المعذبون ، وهم العاملون الصادقون الذين آثروا الجهاد على أموالهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم ، وخرجوا يطوفون فى الدنيا ليؤلبوا العالم كله على بغى فرنسا وطغيانها وعدوانها وظلمها ، وقد تركوا وراءهم شعوباً تدين لهم بالطاعة ، ولا ترضى أن تدين لأحد سواهم ، لأنهم إنما يعبرون عن سر عزائمها ونياتها ، أى عن الجهاد فى سبيل بلادهم بلاهوادة ، وإلى أن ينالوا حقهم كاملا لم تتخوّنه مكايد الاستعمار وخُدعه . وقد اتعظ هؤلاء الأبطال الصناديد بما لقى بعض إخوانهم من أمم الشرق ، حين زلقَت أقدامهم فزلّوا فى المهاوى المظلمة المتشمبة التى تسل القوى من نفس سالكها ، ألا وهى هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات ، التى ابتدعتها شياطين الاستعمار الذين يعرفون باسم ساسة بريطانيا ، ففرقوا بين الأخوين ، وباعدوا بين المشيرتين ، ومدوا المطامع الخائنة الأعين ، فهب فريق من هنا يقاتل فريقاً من أهله هناك ، ووقفت بريطانيا بينهما تنظر وتضحك وتسخر ، وتحرك هذه الدمى إلى أن تنقطع الحبال فتهوى فى الهوة السحيقة الملعونة ، هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات . لقد عرفوا ذلك فأبوا أن يكونوا طعاماً لمستعمر جبار يريد أن يتلعّب بهم ، فاختاروا ما هو أهدى لأممهم وأبقى على وحدتها ، وأشد لقوتها ، وأنأى بها عن العداوات بين بعض الشعب وبعض . لقد عرفوا أن قيادة الثّوار ، تقضى عليهم أن ينظروا إلى خير هؤلاء الثوار قبل أن ينظروا إلى خير أنفسهم ، وعرفوا أن الذى هم مقدمون عليه هو الجهاد الذى لا ينتهى حتى ينتهى هذا الاستعمار البغيض ، وأن الأمم المجاهدة فى سبيل حقها ينبغى أن تظل مجاهدة حتى تنال حقها ، وأنه ينبغى أن ينشأ الجيل من شباب الأمة بعد الجيل ، وهو يرى أمامه مجاهدين لا يفترون ولا يضعون السلاح ، فذلك أحرى أن يملأ قلب الجيل حميّة وأنفة ورغبة فى بلوغ الكمال فى العلم والمال والسلاح ، حتى يجاهدوا كما جاهد آباؤهم وإخوانهم من قبل . وعرفوا أن المهادنة فى مثل هذا إنما هى مهادنة تورث الشعب ضعفاً ، وتمكن للدساسين والخبثاء أن يتخافتوا بينهم فى الدعوة إلى ما يفت القوى ويضعضع العزائم ، فلا يلبث أن ينفض عن المجاهدين من تخاذل وآثر الراحة على لأواء الجهاد . وعرفوا أيضاً أن الشعب الثائر غير الشعب الذى يتبحبح فى مسارح السلم ، فأولها ينبغى أن يظل ثائراً لا يعرف اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بالأخرى . وفيم يلين أو يسلم أو يأخذ بيد ويعطى بأخرى ؟ أفى الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ؟ أنبئونى أى شىء من هذه الثلاثة يتجزّأ حتى يقبل اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بأخرى ، وهو جوهر المفاوضات والمعاهدات والمحادثات .

لقد عرف هؤلاء النفر الذين رضى الله عنهم ورضيت عنهم أممهم ، أن الذى بينهم وبين فرنسا هو الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ، فعلى فرنسا أن تسلم وأن تلين وأن تمطى بيد ولا تأخذ شيئاً ، لأنها لن تأخذ إذا أخذت إلا ذلك الذى أعطت . وهذا بداهة العقل ، وبداهة النفس الطيبة ، وبداهة الفطرة الإنسانية التى لا تنخدع بزيف الكلام ومزوّقه . إما الحرية والاستقلال ، وإما الصراع فى سبيل الحرية والاستقلال ، ولا مفاوضة على شىء ينبغى أن يتم جميعاً أو لا يتم البتة على نقصان وتخون وعزيق ، ولا معاهدة لحرّ على ترك شىء من حريته لغاصبه وسالبه والمهيمن عليه بالطغيان والجبروت ، فهو إن شاء منع وإن شاء أعطى .

كلا ، إنه الحق فلا معاهدة ولا مفاوضة ولا محادثة إلا بعد الاستقلال وجلاء آخر جندى فرنسى وإسبانى عن أرض المغرب كله : تونس والجزائر ومراكش . وإن فى البلاء الذى ابتليت به مصر والسودان والعراق وشرق الأردن وسواها من البلاد ، لعظة لكل امرىء أضاء فى قلبه الإيمان بالحرية والكرامة الإنسانية .

وما الذى يريده حزب الشورى الجديد فى مراكش ؟ أيريد أن تلقى بلاد المغرب على يده ما لقينا من بلبلة وضياع وهلاك وضعف ؟ أيريد أن يرى الشعب المراكشى أحزاباً يأكل بعضها بعضا ، ويتشاحن ضعيفها وقويها على مناصب الحكم ؟ أيريد أن يرى كل أسرة فى بلاد المغرب قد مزقتها الأهواء وعصفت بها عواصف الشهوات الخفية إلى متاع قليل من متاع هذه الدنيا من

زكريات وخواطر :

على عتبة الأربعين

للأستاذ علي الطنطاوي

نزعت رجلي من الركاب ، وطردت من ذهني همّ السفر ، ونفضت ما علق بذاكرتي من غبار الحاضر ، ثم نفذت إلى ما احتوت من كنوز الماضي ، من معجزات البطولة والنبل ، من تاريخنا الواقع ، الذي لا يصل إليه خيال غيرنا ، ولا يتعلق به وهمهم ، وحاولت أن أكتب للعدد الممتاز من الرسالة فما سرت في الفصل غير بعيد ، حتى تباطأ قلمي ، ثم تعثر ، ثم وقف ... وأحسست في نفسي بهذا الضيق الذي ما انفك يلازمني منذ أكثر من عشر سنين ، فيطفىء وقدة حماستي ، ويعقل نشاطي ، ويغلق أبواب الإلهام دوني ، فلا أكتب ما أكتب إلا لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، كالذي يمشي المشية يجر نفسه جراً ، لا يسوقه مقصد ، ولا تجذبه غاية ...

ونظرت فإذا أنا بعد شهرين ، أتم الأربعين ، أربعين سنة قرية ، درت فيها مع الفلك ، وسايرت الشمس ، واستقبلت السنين ، ثم ودعتها كما استقبلتها ، واستولدت الآمال ، ثم دفنتها كما استولدتها ، ورأيت أفراحاً ورأيت أتراحاً ، وصادقت وعاديت، وأحسنت وأسأت ، فما الذي خرجت به من ذلك كله ؟

لقد قطعت في هذه السنين الأربعين أكثر الطريق ، ولكن لم أعرف بعد إلى أين المسير! ومشيت أكثر من أربعة عشر ألف يوم تباعاً ، ولكن لم أدر إلى أين أمشي !

إنني أصحو كل يوم ، فآكلم أهلي ، وآكل طعامي ، وأذهب إلى عملي ، ثم أعود إلى داري ، فأكتب مقالتي ، أو أنظر في كتابي ، أو أزور أصحابي ، أو ألهو بما يلهو به مثلي ، ثم أنام لأصحو من الغد ، فأعيد الفصل ذاته ... والأيام تكر ، والسنون تطوى ، والعمر ينصرم ، وأنا (أمثل الرواية) الأبدية : صحو ومنام ، وشراب وطعام ، وصمت وكلام ، ووداد وخصام . أما أن أعرف نفسي ، وأخلو بها ساعة كل يوم ، وأسأل من هي ، ومن أين جاءت ، وفيم وجدت ، وإلى أين تمضي ، فهذا ما لم أفعله إلى اليوم ، بل إني لأفر منها فراراً ، وأخاف أن أخلو بها ،

مال أو سلطان؟ أيريد أن يرى الشعب يتلهف تلهف البائس المسكين على فتات ما تجود به عليه فرنسا في معاهدة يقال له اليوم إنها « معاهدة الشرف والاستقلال » ثم يقال له بعد غد إن هذه المعاهدة نفسها « حماية بالثلث » ؟ أيريد أن يُرى بعد قليل شباب بلاده وهم يتطاحنون على أسماء رجال لو انكشف الغطاء عنهم لكانوا سوأة في كيان الشعب لو عقل لسترها كما كان يئد أهلُ الجاهلية بناتِهم خشية الخزي والعار؟ أم يريد أن يرى هؤلاء الشباب وهم لا يثقون بأحد من رجالهم بعد كشف الغطاء عن فضائحهم ، فيكونون حرباً على بلادهم يطعنون أنفسهم بكل طعنة نجلاء بقولهم : « إننا شعب لا يصلح للاستقلال » ؟ أيريد هذا الذي لقيته أمم من قبلهم فاوضت وحادثت وعاهدت ، فخرجت من ذلك كله منهوكة بجرحة معذبة تمتهن أشرف شرفها بأخس قول وأرذله ؟ . .

حاشا لله أن يريد حزب الشورى لبلاده مثل هذا . وأنا أعرف الوزاني منذ أكثر من عشرين سنة ، فأنا أسأله بالعهد الوثيق أن يفيء إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرّ النظرين ، لا يقربها إلا مقاتلا مجاهداً رافعاً باسم بلاده وحريتها واستقلالها وكرامتها . وما خُلق الإنسان إلا للجهاد في هذه الحياة حراً كريماً ، فإذا سلب الحرية وذيد عن الكرامة ، فعليه أن يجاهد في سبيلهما جهاداً متطاولا هو وأبناؤه وذراريه لا تداخلهم سآمة ولا ضجر ولا ملل. مستعيناً بالله الذي ينصر المستضعفين في الأرض وينصر الذين لم يملوا الجهاد فيلجأوا إلى المهادنة أو المفاوضة .

أيها الإخوان الصناديد ! جاهدوا وصابروا ورابطوا ولا تملوا حتى يأتيكم نصر الله ، ولا تعجلوا على ربكم فإن الله لا يمل حتى تملوا ، فإذا مللتم فيومئذ يحيق بكم ما حاق بكل من هادن في حقوق بلاده .

محمود محمد شاكر

فأتشاغل عنها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو لهو باطل ، وإذا أنا ألزمت صحبتها ، وعدمت الشواغل عنها ، ضقت بنفسي ، وضجرت وأحسست كأني سأجنّ !

وأنا أسرف العمر في قطع العمر ، وأجعل أكبر همي إضاعة يومي ، كأني أعطيت الحياة لأعمل على تبديدها ، فإذا لم أجد ما أمزق به الوقت ، واضطررت إلى مواجهة الزمان ، في ساعة كساعات الانتظار ، ضقت بعمري ، وضجرت ، وأحسست كأني سأجنّ !

إني أركض أبداً وراء المستقبل ، ففي المستقبل أبلغ آمالي ، وفيه أصلح نفسي ، وفيه أنيب إلى ربي ، وفيه أكتب تلك المعاني التي طالما جاشت بها نفسي ، ولم يجر بها قلمي ، وفيه أؤلف الكتب الكبار التي طالما أزمعت تأليفها ، وفيه أصنع كل شيء . ولكن المستقبل لن يأتي أبداً ، وحين يأتي يصير (حاضراً) وأذهب أفتش عن (مستقبل) آخر ، فأنا كالفرس الذي يعدو ويشتد ، ويكد نفسه ليدرك حزمة الحشيش ، والحزمة معلقة في عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ، ولا يصل إليها ، فلا يزال يسعى حتى يدركه الكلال ، فيقع ، أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ... ولكن الحفرة التي أسقط فيها أنا لا قيام منها ، ولا مناص من ورودها ، ولا يستطيع أن يجتنبها كبير ولا صغير ، ولا غني ولا فقير ، ولا أمير ولا أجير ...

وإذا أنا وصلت إلى الأمل الضخم ، هان عليّ ، وذهب بهاؤه ، وامّحت روعته ، كأن الآمال سراب لا يلمع إلا من بعيد .

لقد كان أكبر أملي يوم كنت في الابتدائية أن أكون معلماً ، وكنت أتوهم حياة المعلم فأجدها جنة أزلت الأرض ، فيها ما تشتهي الأنفس ... أليس المعلم يأمر فيطاع أمره ، وينهى فيجتنب نهيه ، ويوفى التبجيل ، وينال الإكبار ؟ فلما صرت معلماً ، لم أجد من تلك الجنة إلا الذي تجده من الغوطة في الشتاء ، أرضاً موحلة ما فيها إلا الشوك ، وأشجاراً يابسة ، ما فيها إلا الحطب ، ورأيت مدرس الثانوية أعلى قدراً ، وأقل عملا ، وأكبر مرتباً ، وأوسع جاهاً ، فأملت أن أكونه ، وأملت أن أكون كاتباً ، وأن أكون قاضياً ، وأن أكون خطيباً ، وأن أسيح في البلاد ... فلم أجد في الأمل إلا الألم لانتظاره ، ثم الملل من بقائه ، فتيقنت الآن أني لو صرت رئيس الجمهورية ، أو صاحب (الأهرام) ، أو كان لي مال (عبود) ، لذهبت الأيام بلذة ذلك كله ، وهونه الاعتياد ، فلم أستفد منه ، إلا حسد الحساد عليه ، والحسرة ، إن فقد ، لفقده ...

وأن متع الدنيا أوهام ، من لم ينلها تشوق إليها وحسد عليها ، ومن نالها ملّها وتمنى غيرها : المتزوج يتمنى العزوبة ، والعزب يشتهي الزواج ، والمقيم يرجو السفر ، والمسافر يطلب المعاد ، والريفي يحن إلى المدينة ، والمدني يشتهي الريف ، ونحن كنا أطفالاً ... تشترى للطفل اللعبة النفيسة فيفرح بها ، ويهش لها ، ثم يلقيها ويطلب غيرها ، ولو كان دونها . ثم إن الآمال لا تنتهي ... فمن أعطى المليون ابتغى المليونين ، ومن رفع في الوظيفة درجة طلب درجتين ، فلا يزال في شقاءين ، شقاء بالحاضر الذي لا يقنع به ، وبالآتي الذي لا يصل إليه . . .

أفلهذا وجدت وسعيت أربعين سنة ؟ أسعيت لأدرك السراب ؟

وتتالت عليّ الفكر ، وعاودني الضيق الذي طالما كاد يدفعني (لولا خوف الله) إلى طلب الموت من سنين ، وما أشكو المرض فصحتي جيدة ، ولا أشكو الفقر فما أجد من المال يكفيني ، وإنما أشكو فراغاً في النفس لا أعرف مأتاه ، وقوى فيّ لا أجد لها مصرفاً ، وحنيناً إلى شيء غامض لا أدري ما هو على التحقيق ...

* * *

وتركت القلم والورق ، وقمت أدور في الغرفة فوجدت على نضد إبريقاً من البلور الصافي ، طويل العنق ، واسع البطن ، فيه نحلة قد دخلت ولم تستطع الخروج ، فهي تتحفز وتتجمع ، وتثب مقدمة بقوة وبأس ، فيضرب الزجاج رأسها ويردها ، فتعاود الكرة ، وهي لا تبصر الجدار ، وإنما تبصر ما وراءه فتحسب أنه ليس بينها وبين الفضاء حجاب ، فجعلت أنظر إليها وهي تعمل دائبة ، كلما ضربت مرة عادت تحاول أخرى ، لا تقف ولا تستريح ، حتى عددت عليها أكثر من أربعين مرة ، تجد الصدمة كل مرة فلا تعتبر ولا تدرك الحقيقة ، ولا ترفع رأسها لتبصر الطريق ، وتعلم أن سبيل الفضاء ، وباب الحرية ، هو من (فوق) لا عن يمين ولا عن شمال . . .

فتعلمت من هذه النحلة ما كان خافياً عني : تعلمت أننا مثل هذه النحلة نحسب أن الانطلاق إنما يكون على الأرض فنقدم ، فتضرب العوائق وجوهنا وتردنا ، فنقعد يائسين ، أو

نعاود الكرة مستميتين ، نحسب الانطلاق فى الشهرة أو فى المال ، أو فى متع الجمال ، وهيهات . . وها هم أولاء السياسيون والممثلون والمغنون ، تطبق الأرض بأحاديثهم ، ويشتغل الناس بأخبارهم ، ويرون صورهم ، ويسمعون أصواتهم ، فما الذى يحصل من ذلك فى أيديهم ، وماذا ينفعك أن يكون الناس كلهم يمدحونك إذا كنت منفرداً فى غرفتك مبتئساً ، تعس النفس ، محزون القلب ؟

وها هم أولاء الشباب الأغنياء ، يؤمون كل ملهى ، ويستمتعون كل يوم بجمال جديد ، فهل ذهب ظمأ قلوبهم إلى ارتياد منابع الجمال ؟ هل شبعت شهواتهم ؟ أم أن ذلك كالماء الملح كلما شربته جدّد لك ظمأ ؟

وها هم أولاء المحبون المدنفون ، يعانقون من يحبون ، والنفس لا تزال بعد مشوقة ليس يرويها عناق ولا اقتراب ، ولا يشبعها شىء من متع الجسد .

وها هم أولاء (الملايرة[1]) المؤلّفون ، هل أشبعت ملايينهم نفوسهم ، ورزقتهم القناعة والاطمئنان ؟

فما هذا طريق السعادة ، إن الطريق على الأرض مسدود ، والفضاء من حولك له حدود ، وما طريق الفضاء ، وسبيل الانطلاق إلا من (فوق) ، هناك عالم النفس تنشط النفس كما برقت لها منه بارقة ، أو لاح علم : كلما سمعت نغمة سحرية فيها رنّة من ذلك العالم ، أو قرأت قصة عبقرية فيها إشارة إلى ذلك المجهول ، أو وعت موعظة علوية فيها قطرة من ذلك الينبوع .

الآن عرفت ، فيا ضيعة هذه السنين الأربعين !

***

لا تقولوا ، إنك تكتب فى الدين وفى الفضيلة ، وإنك تدعو إلى الخير ، لأنى عزمت على أن أقول الليلة الحق ، ولو كان على نفسى .

الحق يا سادة ، أن الدعاة اليوم إلى الله ، لا أستثنى واحداً ممن أعرف منهم ، كلهم ممثلون ، يلبسون فى الحفلة أو على المنبر ثياب المسرح ، فيبدون بالجبة والعمامة ، فإذا انقضى (الفصل) خلعوها ، وعادوا إلى بيوتهم ، فعكف عابد الدينار منهم على معبوده ، ماله إلا جمع المال همّ ، وعابد الشهوة عليها ، وعابد الجاه ، وعابد المنصب . تعددت الأصنام والشرك واحد !

إنهم ممثلون وأنا أول الممثلين .

ولو كنت صادقاً لما ألفت فى سيرة أبى بكر وعمر ، ثم عدلت عن سنتهما ، وسرت غير سيرتهما ، ولو كنت صادقاً إذ أدعو إلى الإسلام ، لكنت فى سرى وجهرى وفى لسانى ويدى ، واقفاً عند أمر الإسلام ونهيه ، ولو كنت صادقاً لما انغمست فى حمأة هذه الحياة التى سال علينا سيلها من الغرب ، ولو كنت ، وكان عشرة مثلى ، صادقين ، لما بقى فى الأرض فساد . ولقد طهر الأرض من أوضارها منبر واحد من الخشب ، ثلاث درجات ليس لها درابزين ، ولا عليها قبة ، ولا لها باب ، فلم لا تطهر الأرض مائة ألف منبر مزخرفة منقوشة محلاة لها أبواب جميلة وقباب ؟

ألأن الناس فسدت طبائعهم ؟ ألأن الزمان قد دنا آخره ؟

لا . بل لأن القائمين عليها وعاظ من خشب ، يحملون سيوفاً من خشب !

***

أما إن الحق ، الذى لا بد الليلة من الصدع به ... إنه ... لا هذه المواعظ ، ولا هذه المقالات ، هى التى توصل إلى الله ، ولكن يوصل إليه ، أن يعود كل إلى نفسه ، فيسأل ، من أين جاءت ، وفيم خلقت ، وإلى أين المصير ؟

وأن يعلم كل أن الطريق من (فوق) ، فيرفع رأسه ليرى الطريق . ومن منا يرفع اليوم رأسه ، ونحن كالنحلة لا تمشى إلا على الأرض ؟ بل إن منا من هو كالفراشة ، تسعى إلى النار ، يحسبها هى باب الانطلاق !

إن المسيحيين يصلون لربهم قبل الطعام على المائدة ، وقبل الدرس فى المدرسة ، ويوم الأحد فى الكنيسة ، فتعلم أنهم مسيحيون ، فما يصنع كثير من المسلمين ، وأى علامة تدل على أنهم مسلمون ، من ساعة يصبحون إلى ساعة يمسون !

لا صلاة ، ولا ذكر ، ولا تمييز الحلال من حرام ، إن عملوا فضيلة فباسم الأخلاق والفضيلة والصحة ، لا باسم الإسلام .

فما الفرق بينهم وبين غيرهم ؟

يقولون إن الدين المعاملة والصدق والقصد والاعتدال ، وأن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك .

(١) جمع مليونير

صحيح ، ولـكن هذا من الدين ، وليس هو الدين !

وهذا شأن كل شريف ، يستوى فيه الشرفاء جميعاً ، فما معنى تفريقهم إلى مؤمنين وملحدين وعباد وثن ؟

وهذا كله للحياة الدنيا ، فما الدين نعمله للحياة الأخرى ؟

لا ، بل الدين ، أن تتصل بالعالم العلوى ، وأن تراقب الله ، وأن تعلم أنه مطلع عليك أبداً ، وأنه يرعاك بعينه فترعاه بقلبك وتطيعه بجوارحك .

هذه غاية الخلق ، وهذا سرّ الوجود ، ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، لا عبادة عادة ، وصلاة رياضة ، وصوم استشفاء ، وحج سياحة ؛ بل العبادة التى يحسّ بها القلب حلاوة الإيمان ، ويذوق فيهـا لذة العبودية ، ويستشعر فيها القيام بين يدى الله . ولتناضل مع ذلك فى ميدان الحياة ، ولتقتحم لجّها ، ولتأخذ أوفر قسط من طيباتها ، ومن علومها ومن فنونها ، ولتـكن قوياً ، ولتـكن غنياً .

هذى حقيقة الدين ، وهذى غاية الحياة ، فهل يصل إلى الغاية من مشى أربعين سنة مائلا عنها ، ضالا طريقها ؟

ألا يا ضيعة هذه السنين الأربعين !

(دمشق ص . ب ١٩) **على الطنطاوى**

الـكندى ورجال الدين

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

بين الفلسفة والدين ، وبين الفلاسفة ورجال الدين ، خصومة قديمة تذهب إلى أبعد العصور ، ولا تزال سارية حتى اليوم . فقد كانت التهمة التى وجهت إلى سقراط أنه أنكر آلهة اليونان ، ومن أجل ذلك حكموا عليه بالإعدام . وتاريخ الحضارة الإسلامية يسجل صراعاً مستمراً حاداً بين الفلاسفة ورجال الدين ، اشتهر بعضه ، وخفى عنا بعضه الآخر . وأظنك لا تجهل كيف نهض الغزالى يهاجم الفلاسفة هجوماً عنيفاً فى كتابه تهافت الفلاسفة ، وانبرى له ابن رشد يفند أقواله فى « تهافت التهافت » كما ألف فى التوفيق بين الفلسفة والدين ، ويدعو إلى رفع الخلاف عنهما كتاب « فصل المقال فيما بين الحـكمة والشريعة من الاتصال » .

ولا نحب أن نستعرض كل ما وقع فى تاريخ الفكر ، فالخصومة أشهر من الاستعراض ، ولا تحتاج إلى استرسال . غير أنا نحب أن ننشر صفحة طواها التاريخ أجيالا ، وسعى الباحثون عنها فلم يجدوا إلا ظلا وخيالا ، تلك هى صفحة الـكندى ، فيلسوف العرب ، الذى ضاعت كتبه ، وطويت فى بطون المخطوطات ، حتى كشف حديثاً عن جملة من رسائله ؛ تفصح عن فلسفته ، وتلقى الضوء على مذهبه .

وسوف نحدثك فى هذه الـكلمة عن جانب واحد من جوانب فكره : هو موقفه من الدين ورجاله ، فنذكر طرفاً من احتجاجه وجداله .

فقد شاع عن الـكندى أنه ينتسب إلى يونان ، وأنه كفر بعد اصطناع آرائهم فى الفلسفة ، كما روى المسعودى فى مروج الذهب فقال : « وقد كان يعقوب الـكندى يذهب فى نسب يونان إلى ما ذكرنا : أنه أخ لقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار يذكرها فى بدء الأشياء ... وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى فى قصيدة له طويلة ، وذكر خلطه نسب يونان بقحطان على حسب ما ذكرنا آنفاً فى صدد هذا الباب ، فقال :

أبا يوسف إنى نظرت فلم أجـــد
على الفحص رأياً صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عنـد قوم إذا امرؤ
بلاهم جميعاً لم يجـــد عندهم عندا
أتقرن إلحـــاداً بدين محمد
لقد جئت فينا يا أخا كندة إدا
وتخلط يونان بقحطان ضلة
لعمرى لقد باعدت بينهما جدا

ونحن نرى أن الـكندى برىء من التهمتين جميعاً : تهمة الانتساب إلى اليونان ، وتهمة الإلحـاد . وإنما شاع ما شاع عنه بدافع إغراء الحساد والمنافسين . ذكر ابن النديم فى الفهرست عند الـكلام على أبى معشر المنجم « أنه كان أولا من أصحاب الحديث . وكان يضاغن الـكندى ، ويغرى به العامة ، ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة » .

وأنصفه المغفور له مصطفى عبد الرازق فى بحث له عن الـكندى فقال : « هكذا يبلغ العبث بالتـاريخ حداً يشوه من خلق الـكندى ومن عقله ، وقد كان الرجل فى خلقه وفى عقله

من أعظم ما عرف البشر » .

وأكبر الظن أن المعاصرين للكندى أضافوا إليه القول بالانتساب إلى يونان ، لما رأوه من انصرافه إلى البحث فى الفلسفة اليونانية ، ونقل آراء الفلاسفة وكتبهم إلى العربية ، مع تحبيذ هذه الآراء والدفاع عنها . ذكر القفطى فى أخبار الحكماء أن الكندى هو المشتهر فى الملة الإسلامية بالتبحر فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية » . وقال ابن أبى أصيبعة صاحب طبقات الأطباء « حُذّاق الترجمة فى الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت بن قرة الحرانى ، وعمر بن الفرخان الطبرى » .

كان الكندى إذن من حذاق المترجمين عن اليونانية ، وله فى الدفاع عن الفلسفة اليونانية حجة لطيفة خلاصتها أن الفرد الواحد لا يستطيع بلوغ الحق وحده ، فلا بد من التعاون فى الفكر والأخذ عن المتقدمين إلى أن قال : [1] « وغير ممكن أن يجتمع فى زمن المرء الواحد وإن اتسعت مدته ، واشتد بحثه ، ولطف نظره ، وآثر الدأب ، ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث ، وإلطاف النظر وإيثار الدأب فى أضعاف ذلك من الزمان الأضعاف الكثيرة . فأما أرسطوطاليس ، مبرز اليونانيين فى الفلسفة فقال : ينبغى لنا أن نشكر آباء الذين أتوا بشىء من الحق ، إذ كانوا سبب كونهم ، فضلا عن أنهم سبب لهم . وإذ هم سبب لنا إلى نيل الحق ، فما أحسن ما قال فى ذلك » .

ثم أضاف بعد ذلك : وينبغى لنا ألا نستحى من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة ... »

ولسنا ندرى هل كان الكندى هو الذى بدأ الهجوم على رجال الدين ، أم كان يدفع عن نفسه هجماتهم . ذلك أن الفلسفة لم تكن قد أوغلت فى الحضارة الإسلامية ، ولم يكن العهد بينه وبين عصر المأمون بعيداً ، والمأمون كما نعرف هو الذى شجع حركة النقل وأنشأ فى بغداد دار الحكمة ، وبعث فى طلب كتب الطب والفلسفة وأجرى الأرزاق على المترجمين ، وكان أغلبهم من السريان . والراجح أن الكندى هو أول فيلسوف عربى ، وأول ناقل عربى ، ولهذا قالوا عنه « فيلسوف العرب » .

وكانت ألسنة رجال الدين حادة عنيفة. ترمى المشتغلين بالفلسفة بالكفر ، على الرغم من دفاع الخلفاء عنهم فى صدر حركة النقل . وهذا هو السبب الذى دعا الكندى إلى الحذر فى نقل جميع آراء أرسطو ، وفى ذلك يقول : « توقيا سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر فى دهرنا من أهل الغربة عن الحق ، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق ؛ لضيق فطنتهم عن أساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة فى الرأى والاجتهاد فى الأنفاع العامة الشاملة ، ولدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية ، والحاجب بسدف سجونه أبصار فكرهم عن نور الحق ووضعهم ذوى الفضائل الإنسانية — التى قصروا عن نيلها ، وكانوا منها فى الأطراف الشاسعة — لموضع الأعداء ، ذبّاً عن كراسيهم المزورة التى نصبوها من غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين ؛ لأن من تجر بشىء باعه ، ومن باع شيئاً لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين .

ويحق أن يتعرى من الدين مَن عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفراً ؛ لأن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة .

وجملة كل علم نافع والسبيل إليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعاً هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ؛ فإن الرسل الصادقة ، صلوات الله عليها ، إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وإيثارها »

فأنت ترى أن الخصومة كانت عنيفة بين الطرفين ؛ فرجال الدين يرمون الكندى بالكفر والإلحاد ، ويذهبون إلى أنه يجعل يونان أخا قحطان ، والكندى يرمى رجال الدين بأنهم يتجرون بالدين وهم عدماء الدين ، ويطلب منهم الحجة إن كان عندهم برهان أو دليل .

يقول عنهم إنهم يتسمون بالنظر وهم أهل غربة عن الحق ، وأنهم يتتوجون بتيجان الحق بغير استحقاق ، يحجب الحسد أبصارهم عن نور الحق ، ويتربعون على كراسى الدين طلباً للرئاسة وذباً عنها

ثم يبين الكندى الصلة بين الحكمة والشريعة ، بل يذهب إلى أن الدين من الفلسفة ، فهى قنية علم الأشياء بحقائقها وفى ذلك علم الربوبية والوحدانية والفضيلة . فالفلسفة توافق الدين ؛ لأن الرسل الصادقة أتت بالإقرار بربوبية الله وحده .

ثم يحتج الكندى لرجال الدين بحجة عقلية تضيق عليهم

(١) كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى .

الحناق ، فيقول : إن اقتناء الفلسفة « يجب أو لا يجب ، فإن قالوا يجب وجب عليهم طلبها ؛ وإن قالوا إنها لا تجب ، وجب عليهم أن يحصروا علة ذلك ، وأن يعطوا على ذلك برهاناً ، وإعطاء العلة والبرهان من قنية علم الأشياء بحقائقها . فواجب إذن طلب هذه القنية بألسنتهم والتمسك بها اضطرار عليهم » .

غير أن النصر فى هذه المعركة كان لرجال الدين إذ شوهوا آثار فيلسوف العرب ، وصرفوا عن قراءتها أغلب الناس . ويبدو كذلك أنهم أوغروا عليه صدر زعيم من أئمة الأدب فى ذلك العصر هو الجاحظ ، الذى تناوله بالنقد والتجريح والسخرية اللاذعة فى أكثر من كتاب ، فى الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء

ومن التهم التى رمى بها الكندى فساد الذوق الأدبى ، وضعف الأسلوب ، والبعد عن البلاغة ، وهى تهمة لصقت به ، لا نستطيع أن نحقق فيها إلا إذا تناولنا أسلوبه بناء على ما ظهر له من نصوص .

أحمد فؤاد الأهوانى

موقف اليهود فى مصر

للأســـتاذ نقولا الحداد

يدّعى اليهود المقيمون فى مصر أنهم مصريون وطنيون فمن الظلم أن يُطلب منهم أن يحاربوا إخوانهم الصهيونيين .

فإذا كانوا مصريين وطنيين بكل معنى الكلمة كما يزعمون فعليهم ما على المصريين كما أن لهم ما للمصريين . فهم يرتزقون فى مصر ويثرون بل يستغلون جميع مرافق البلاد أكثر من غيرهم ، فإذاً يجب أن يكون عليهم ما على المصريين .

إن المصريين كسائر العرب فى جميع البلاد العربية يعتبرون فلسطين قطعة من البلاد العربية بل هى مركز العروبة . ولذلك قرر العرب فى مصر وغير مصر أن يدافعوا عن فلسطين بالمهج والأموال ، وقرروا أن تبقى فلسطين عربية إلى الأبد ، وأنهم يضحون كل غال ونفيس وبقائها لأجل استقلالها عربية لا قطرة دم أجنبية فيها .

ولهذا السبب جعل المصريون كاخوانهم العرب فى جميع البلاد العربية يتبرعون بالمال ويتطوعون بالرجال ويقتنون العتاد لتحرير فلسطين من الصهيونيين . فإذا كان يهود مصر مصريين وطنيين كما يزعمون ، فيجب أن يتبرعوا ويتطوعوا كإخوانهم المصريين . وإن كانوا صهيونيين فهم إذاً أعداء العرب فى قلب بلاد عربية ، وبالتالى فهم أعداء مصر نفسها . وحكمهم فى هذه الآونة الحاضرة حكم الأجانب الأعداء فى مدة الحرب الأخيرة فيجب أن يعتقل الطابور الخامس منهم وكل من يشتبه بأنه معاون للصهيونين وأن تصادر أموالهم كما فعلت مصر بأعداء الحلفاء . وأما أن يبقوا فى البلاد يستغلونها ويترعرعون فيها ثم يمدون بالأموال وبالمؤونة والعتاد إلى تل أبيب وكر الصهيونية فإن هذا العمل خيانة لمصر ولجميع العرب .

وإما أن يقولوا أو يقول من يدافع عنهم انه لظلم أن نطالب منهم أن يحاربوا إخوانهم فى الدين ، أى الصهيونيين ، فهذا أمرٌ لا يحتمله الطبع البشرى .

ولكن ليعلم اليهود فى كل العالم وليعلم أنصار اليهود أن هذه الحرب المبتدئة الآن فى فلسطين ليست حرباً دينية وليست حرباً بين يهود ومسلمين ونصارى ؛ إنما هى حرب قومية بين صهونيين وعرب ؛ فإذا كان يهود مصر المقيمون فى مصر من زمان طويل صهيونيين فليخرجوا من البلاد لأنهم يعدون أعداء ؛ وإن كانوا مصريين فعليهم أن يشاركوا المصريين فى الدفاع عن فلسطين .

وأما أن يقولوا لا يصح أن نحارب إخواننا فى الدين فهو عذر غير مقبول . لما كان إزنهور يقود الجيوش الأميركية فى الحرب المنصرمة لمقاتلة الألمان لم يقل إنى من أصل ألمانى وديانتى كديانة الألمان فلا يصح أن أحارب الألمان ، بل قال إن أميركا تحارب ألمانيا وأنا أميركى فيجب أن أسحق ألمانيا . وهكذا فعل .

وحين كان جورج وشنطون يقود الجنود الأميركان ضد الجنود الإنكليز لكى يحرر أميركا من نير بريطانيا ، لم يقل إن هؤلاء الجنود البريطانيين إنكليز مثلنا ودمنا من دمهم ولغتنا لغتهم وديننا دينهم فلا يجوز أن نحاربهم ، بل كان يقول : بريطانيا محتلة أميركا ، وأميركا تريد أن تستقل ، فيجب أن نحاربها حتى نطردها من البلاد . وهكذا كان .

فيا أيها الإخوان اليهود ! إن كنتم إخواننا فى الجنسية والوطنية فاشتركوا معنا فى قتل الصهيونية . وإن كنتم صهيونيين فاخرجوا من البلاد لأنكم أعداء البلاد فاختاروا أحد هذين الموقفين

نقولا الحداد

من رسائل الشيخ شامل

« على هامش الثقافة العربية فى الاتحاد السوفيتى »

للأستاذ برهان الدين الداغستانى

فى شهر يونيو من سنة ١٩٤٣ أذاع الأستاذ أغناطيوس كراتشكوفسكى محاضرة عن الثقافة العربية فى الاتحاد السوفيتى جاء فيها ما يأتى : « ولا يزال بعض سكان داغستان يتكلمون بلغة عربية قديمة إلى جانب لغتهم الأصلية ، ويستخدمونها فى التخاطب والكتابة ، وحتى فى نظم الشعر وفق الأوزان العربية القديمة الخ » .

ونشرت خلاصة تلك المحاضرة فى بعض الصحف المصرية يومئذ ، فقام أحد كبار الكتاب المعنيين بالشئون القوقازية ، وكتب مقالا فى إحدى الصحف اليومية الكبيرة حاول فيه التشكيك فيما قاله المحاضر عن ذيوع اللغة العربية فى بعض جهات الداغستان ، وكتبت فى ذلك الحين مقالا طويلا شرحت فيه مكان اللغة العربية فى القوقاز وبينت أنها عماد الثقافة العامة فى الداغستان من أمد بعيد . وقد تفضلت الرسالة الغراء فنشرت ذلك المقال فى العدد الأول من سنتها الثانية عشرة (يناير سنة ١٩٤٤) .

هذه كلمة وجيزة أردت بها التمهيد قبل نشر بعض الرسائل التى عثرت عليها مما كتبه الشيخ شامل نفسه فى شئون مختلفة بلغة عربية سليمة ، فيها سلاسة العبارة ، ووضوح الفكرة .

وهى أربع رسائل عثرت عليها اتفاقاً عند أحد شيوخ الداغستانيين فى حمص — سورية — فى الصيف الماضى [1] .

وهذه الرسائل تفيدنا أن شاملا كان يدعو نفسه — كما كان يدعوه أصحابه وأتباعه فى القوقاز — أمير المؤمنين .

كما نعرف منها أن اسمه المعروف به هناك هو « شمويل » وإن اشتهر فى خارج بلاد القوقاز باسم الشيخ شامل .

وهذه هى الرسائل :

(١) هو الحاج محمد الأنوتى الداغستانى فى يوم الجمعة ١١/٧/١٩٤٧ م

— ١ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى والده الأعز جمال الدين وإلى أخويه الكريمين الحاج على المسكرى والقاضى حجيو وإلى أهل بيته ، فإلى كافة جماعة القريتين .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد، فلقد وقع بيننا وبين الكفار وقائع وحروب بحيث لم يقع مثلها إلى الآن فى ديار « چچان » [1] ، بل فى ديار داغستان . يومى الأحد والإثنين ، بالمدافع الكبار والصغار والسيوف الصوارم ، ونصرنا الله تعالى وأيدنا تأييد النبى المختار محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخذل أولئكم اللاعين أينما توجهوا ، ورجعوا من أمام باب شعيب إلى قلعة « أَىْ سُنْقُر » مقهورين منهزمين بحيث لا يرجعون إلى ديارنا بعد ، فحمدنا الله تعالى وشكرناه على أياديه العظام ، وإعانته لنا . وهذا بشرى لكم أيها الكرام ، ولعل هذا التأييد بسبب بركات دعواتكم ، وخشوعكم وتضرعكم . ونحن نرجع إلى الأوطان بلا طول فصل ، إن شاء الله تعالى. والباقى يخبركم الحامل بالتفصيل التام . هذا . والسلام .

— ٢ —

من الكاتب الفقير شمويل إلى إخوانه الكرام قاضى وعلماء وجميع جماعة « بِنْ » [2] :

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصانكم الله تعالى من كل آفة . ما ظهر منها وما بطن آمين . أما بعد .

فاعلموا — يا إخوانى — إنى تركت أخذ مكافلكم للرهن ثقة بكم أن لا تخونوا دين الله تعالى ورجاء أن يكون ذلكم الترك سبباً لزوال الكدورة من بينكم ، وزيادة الألفة والمحبة فيكم ، فلا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ، ولا يقصد بعضكم ضر بعض ، ولا تكونوا جواسيس « أنصال » [3] لإيصال الضرة إلى بعضكم ، وكونوا عباد الله إخواناً .

(١) مقاطعة فى شمالى الداغستان كانت ميدان معارك كثيرة بين شامل وبين الروس
(٢) إسم قرية
(٣) اسم أحد الخارجين على الشيخ شامل المتعاونين مع الروس .

هذه نصيحة من الفقير ، فمن لم يقبلها ولم يعبأ بها ، وسعى بمخالفتها . فإن أصابه منا تمزيز بليغ — ولا شك أنه يصل إن شاء الله تعالى بعونه وقوته إما بالقتل أو ما هو أيسر منه — فلا يلومن إلا نفسه ، والباقي يخبركم الحامل بأوضح بيان ، بالمشافهة واللسان . والسلام .

— ٣ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى خادم الكفار — ومحارب القهار ، وخليل الشيطان الفرار « أغلار »(١) .

سـلام على من اتبع الهدى ، ونهى النفس عن موادّات العدى . أما بعد .

فإن هذا النصراني قد اختار دين الإسلام ، من خدمة عبدة الأوثان والأصنام ، وإن اخترتم المكس . هذا .

— ٤ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى أخيه النائب أبي بكر . سلام كثير . فالذى يقوله هؤلاء الحاملون من أخذ مزارع البنات المتزوجة إلى الأخرى مما لا يقبله العقل والنقل ، فاحذر منه ، فالسلام .

يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ

***

هذا هو نص الرسـائل التي عثرت عليها وهي — كما رأى القارىء — رسائل عربية الأهاب واضحة الأسلوب مع مراعاة أنها كتبت قبل نحو مائة سنة ، وأن كاتبها رجل لم يغادر بلاده إلى بلاد عربية فضلا عن أنه كان مدى ثلاثين سنة متواصلة فى حرب مستعرة مع عدو قوى جبار .

والرسائل الثلاث الأولى كتبت فى إبان الثورة وفى شئون متصلة بها أشد اتصال . والرسالة الرابعة كتبت رداً على استفتاء فى شأن من شئون الحياة . وتمتاز عن بقية الرسائل بأنها مذيلة بتاريخ وهو يوم السبت الثالث من جمادى الأولى سـنة إحدى وسبعين ومائتين وألف من الهجرة . أى قبل استسلام شامل بنحو خمسة أعوام ، فقد اضطر إلى التسليم فى صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف .

والشيخ شامل كان لا يعرف اللغة الروسية مع أنه عاش فى بلاد كان نفوذ الروس فيها عاماً شاملا فى كثير من الأوقات ، بل كان لا يعرف إلى جانب لغته الأصلية إلا اللغة العربية التي كان يحسنها إحساناً . فقد ذكر الفيكونت فيليب دى طرازى فى تاريخ الصحافة . (ج ٢ ص ١٧٣) عند كلامه عن سـليم دى نوفل واستدعائه سنة ١٨٦١ م لتدريس اللغة العربية فى جامعة بترسبورغ — ما يأتى . « واتفق أن شاملا المشهور الذى حارب روسيا مدة ٣٢ سنة خضع وسلم لها فى ذلك الزمن ، وكان لا يحسن اللغة الروسية ، بل العربية ، فكان سليم ترجماناً بينه وبين القيصر اسكندر الثانى » .

وعلى ذكر القيصر اسـكندر الثانى أقول : ذكر الفريق محمد فاضل باشـا الداغستانى الذى كان أسيراً لدى الروسيين مع الشيخ شامل — هذه الحادثة :

كان الشيخ شامل مدعواً إلى إحدى الحفلات المقامة فى قصر الامبراطور اسـكندر الثانى ، وبينا كان جالساً بجانب القيصر اسـكندر الثانى على المائدة التفت إليه القيصر ، وأظهر له عظيم الاحترام والتقدير وقال له :

« إننى فخور جداً أن أرى فى مثل هذا اليوم السعيد رجلا عظيما مثلكم فى ضيافتى » .

فلم يترك شامل هذه التحية تمر بسلام ، فالتفت إلى القيصر وأجاب بهدوء :

« لو أن شخصكم الكريم كان فى أسرى وضيافتى لـكان سرورى أعظم ، وافتخارى بذلك أجل ! » .

رحم الله شاملا وبرد ثراه ، فقد عاش كريماً يناضل فى سبيل دينه ووطنه أكثر من ثلاثين عاماً ، حتى إذا اضطر إلى إلقاء السلاح والاستسلام إلى عدوه لم تفارقه روح الرجل المسلم المناضل الحر ، ولو كان جليسه امبراطور روسيا القيصر اسكندر الثانى .

برهان الدين الداغستانى

(١) إغلار خان من أعوان الروس الخارجين على شامل . والرسالة قاسية فيها بعض غموض

الفتوة الاســـــلامية

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

عرفوا الفتوة فى اللغة بأنها : الـكرم والسخاء ، والشجاعة والمروءة ، فإذا عرفنا أن هذه الفضائل الخلقية كانت جماع الشرف والحمد فى البيئة العربية أدركنا أن « الفتوة » كانت دلالة النبل والسمو فى تلك البيئة . ولقد قالوا « لا فتى إلا علىّ » ، يعنون أنه كرم الله وجهه كان غاية فى إدراك هذه الفضائل والشمائل ، على أننا نجد معنى « الفتوة » فيما بعد الصدر الأول للإسلام قد اتسع فى دلالته فأصبح يضم إلى ما سلف من الفضائل الخلقية فضيلة الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، وبهذا انتقلت « الفتوة » من طور إلى طور ، فالفتى فى الطور الأول كان فرداً غايته أن يفعل ما يكسبه الحمد فى قومه ، وأن يحافظ على شرفه الذى هو شرف قبيلته ، أما فى الطور الثانى فإنه أصبح فرداً يعيش لغيره ويؤثره على نفسه ، أو كما نقول فى اصطلاح العصر : فرداً يعيش للجماعة ، وقد حدد الشاعر العربى هذا المعنى إذ يقول :

فإن فتى الفتيان من راح واغتدى لضر عدو أو لنفع صـديق

ويظهر أن « الفتوة » قد ابتدأت تتميز فى البيئة الإسلامية كظاهرة من ظواهر المجاهدة ، وكمرحلة من مراحل التصوف ، على عهد الحسن البصرى ، ومما يؤثر عن الحسن قوله : « كان الفتى إذا نسك لم نعرفه بمنطقه وإنما نعرفه بعمله » ، وبهذا المعنى تكلم فى « الفتوة » جعفر الصادق ، ثم الفضيل ، ثم الإمام أحمد ، ثم سهل ، فالجنيد ، وأضرابهم من الصوفية . قال على بن أبى بكر الأهوازى : « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلا واحداً » ، وقال القشيرى : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً فى أمر غيره » ، وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » إن الفتوة هى كسر إبراهيم للصنم، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .. وهكذا نجد « الفتوة قد اتخذت فى البيئة الصوفية مظهراً يلائم تلك البيئة فى اتجاهاتها وفى أهدافها ..

والـكلام على ما كان من نظام « الفتوة » فى محيط الصوفية يحتاج إلى حيّز كبير ، وقد يقتضى ذلك كتاباً برمته ، فحسبنا تلك الإشارة العابرة ، لأننا نقصد فى هذا المقال إلى الـكلام عن « الفتوة » إذ تمثلت فى المجتمع الإسلامى نظاماً له أهدافه السياسية والاجتماعية والخلقية ، وقد كان ذلك على عهد الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، فهو الذى فرغ لهـذا الأمر وتولى تدبيره بنفسه ، فأهدر ما كان من أوضاع الفتوة السابقة ووضع لها نظاماً عاماً ينتظم الأكابر والأصاغر والخاصة والعامة ، وجعل نفسه القبلة فى هذا والمرجع ، وأرسل إلى الملوك والأمراء على أن يأخذوا بهذا النظام ، قال « أبو الفداء » فى حوادث سنة سبع وستمائة : « وفى تلك السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة [1] ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق ويجعلوه قدوتهم . . . » ، ويقول أبو المحاسن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : « وفى أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة ببغداد ورمى البندق ولعب الحمام المناسيب ، وافتن الناس فى ذلك ، ودخل فيه الأجلاء ثم الملوك ، فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوة ، ولبسها أيضاً الملك شهاب الدين صاحب غزنة والهند من الخليفة الناصر لدين الله ، ولبسها جماعة أخر من الملوك . . »

ولعل ابن الساعى هو المؤرخ الوحيد الذى فصل ما كان من عمل الناصر فى ذلك ، ولقد حفظ لنا هذا المؤرخ المظيم صورة من العهد الذى أذاعه هذا الخليفة على رؤساء الأحزاب بتعاليم الفتوة وما حدّد لها من التقاليد والأوضاع حتى لا يتعدوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الناس [2] ، وقد كان من خبر ذلك العهد أن الفاخر العلوى كان رفيقاً للوزير ناصر ابن مهدى ، وكان له رفقاء ، فاختصم أحد رفقائه مع رفيق لعز الدين نجاح الشرابى ، ووقعت بذلك فتنة عظيمة بين الفريقين، حتى تجالدوا بالسيوف ، فانتهى هذا إلى الخليفة الناصر فأنكره ، وتقدم إلى الوزير بجمع رؤوس الأحزاب ، وأن يكتب فى ذلك كتاب يؤمرون فيه بالمعروف والألفة ، وينهون عن التضاغن

(١) هو كما نقول فى هذه الأيام يشربون نخب فلان .

(٢) لم يصلنا من تاريخ ابن الساعى إلا قطعة مخطوطة جمعها المغفور له أحمد تيمور باشا وهى تبدأ من حوادث سنة ٥٩٥ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٦٠٦ هـ وعليها اعتمدنا فى نقل تلك النصوص .

والتباغض ، ويقرأ بمحضر منهم ، ويشهد عليهم بما يتضمنه ، فمن خالفه أخذت سراويله ، وأبطلت فتوته ، وعوقب بما يستحق» ويعتبر هذا العهد وثيقة نادرة تكشف لنا عن الحدود التي رسمها الخليفة الناصر لنظام « الفتوة » الذي أقامه ، وتبين لنا ما وضع لهذا النظام من هدف وغاية ، ففي ديباجة هذا العهد يشير إلى شيء من تاريخ الفتوة ومرجعها وأصلها فيقول : « من المعلوم الذي لا يمارى في صحته ، ولا يرتاب في وضوح براهينه وأدلته ، أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، وإليه دون غيره ينسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته الشريفة النبوية نسج الرفقاء والإخوان ، وأنه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ، ويستوفيها من أصناف الجناة على تباين جناياتها ، ومللها ومذاهبها ، غير مقصر عما أمر به الشرع المطهر وقدره ، ولا مراقب فيما رتبه من الحدود وقرره ، امتثالا لأمر الله تعالى في إقامة حدوده ، وحفظاً لمناظم الشرع وتقويم عموده ، فإنه عليه السلام فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أخبار الصحابة ومجمع ، فلم يسمع أن أحداً من الأمة لامه ، ولا طعن عليه طاعن في حد أقامه ، وحقيق بمن أورثه الله مقامه ، وناط به شرائع الدين وأحكامه ، وانتمى إليه عليه السلام في فتوته ، واقتفى شريف شيمته ، وكريم سجيته ، أن يقتدي به عليه السلام في أفعاله ، ويحتذي فيما استرعاه الله تعالى واضح مثاله ، غير ملوم فيما يأتيه من ذلك ، ولا معارض فتوة وشرعاً فيما يورده ويصدره»

ثم يشير العهد إلى المراسم المفروضة « على كل من تشرف بالفتوة برفاقة الخدمة الشريفة المقدسة المعظمة المجدة الطاهرة الزكية الأمامية الناصرة لدين الله تعالى » ، وكل هـذه المراسم دعوة إلى الألفة والمحبة ، وإلى أن يكون الرفاق في عون بعضهم بعضاً ، فمن كان له رفيق قتل نفساً زكية بغير إثم بادر بالخروج من رفقته ، لأنه بهذا الإثم خرج عن دائرة الفتوة ، ومن حمى قاتلا وأخفاه وساعده على أمره تنزل عنه كبيره وتبرأ منه ، ومن حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريد الشرع فقد ضل وهوى ، وإذا قتل الفتى فتى من حزبه سقطت فتوته ، ووجب أن يؤخذ منه القصاص عملا بقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » ، فإذا قتل غيرُ فتى رفيقاً من الرفاق أو عوناً من الأعوان ، أو منتسباً إلى ديوان في بلد الخليفة المفترض الطاعة على كافة الأنام ، فتدعيب هذا القاتل بالقتل وواجب القصاص منه على كل فتى راجح . .

وفي الختام يشير العهد إلى ما يجب على الرفقة من العمل بموجبه والجري على مقتضى المأمور به والوقوف عنـد الحدود فيـه ، قال ابن الساعي « وقد سلم إلى كل واحد من رؤساء الأحزاب منشور بهذا المثال فيـه شهادة ثلاثين من المدول ، ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما صورته : قابل العبد بما تضمنه هـذا المرسوم المطاع ، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والامتثال والاتباع ؛ وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعاً ، وهذا المعروف من سيرة الفتيان نقلا وسمعاً ، وقد ألزمت نفسي إجراء الأمر على ما تضمنه هـذا المرسوم الأشرف ، فمتى جرى ما ينافي المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً لي والمؤاخـذة مستحقة على ما يراه صاحب الحرب ثبت الله دولته وأعلى كلمته ... » .

لم تكشف لنا النصوص الواردة عن حقيقة القصد الذي كان يهدف إليه الناصر من إنشاء هـذا النظام للفتوة ، أو على الأصح من إنشاء هذه الجمعية التي كانت في نظامها أشبه ما تكون بالجمعيات السياسية والحربية ، ولهذا يرجح الباحثون أن الناصر كان يقصد بذلك إلى إحياء الروح الحربية في النفوس ، وإقامة قوة يمكن أن يقف بها في وجه أولئك الأعاجم الذين أخذوا يتخطفون الامبراطورية العربية من كل جانب ، ويعملون على إزالة معالم الخلافة الإسلامية .

غير أنا نرى جميع المؤرخين القدماء الذين كتبوا في سيرة الناصر وأعماله قد عابوه بالانصراف إلى هذا الأمر ، حتى يقول أبو الفداء إنه « كان قبيح السيرة منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب ولبس سراويلات الفتوة » ، وإنهم ليذكرون عنه في ذلك حكايات تصوره مثـلا أعلى في اللهو وسقوط الهمـة والانصراف عن مهمات الأمور . والمؤرخون القـدماء لا شك معذورون في هذا التقدير ، لأنهم تعودوا أن يروا الخليفة مثالا للارستقراطية المتعالية ، فهو شخص لا عمل له إلا أن يجلس

في صدر الديوان يأمر وينهى ، ويمنع ويمنح ، فكان من الغريب في تقديرهم أن ينصرف الناصر إلى هذا التدبير ، وأن يبذل له كل هـذه العناية ، وأن يعنى بتعميم ذلك النظام الحربي الرياضي بين الطبقات ! !

على أي حال نستطيع أن نقول إن الناصر قد وضع نظاماً للفتوة الإسلامية كان في الإمكان أن يجدد شباب الدولة العربية وأن ينهض بها من عوامل الانحلال التي تسربت إلى جسمها ، ولكن يظهر أن أحداث الزمن في تلك الأيام كانت أعنف وأغلب . على أن هذا النظام قد امتـــدت أصوله في البيئات الإسلامية ، وعمت آثاره آماداً من السنين ، فأننا نجد الرحالة ابن بطوطة بعد عهد الناصر بقرنين ، أي في القرن الثامن الهجري يتحدث عن جمعيات الفتوة وانتشارها في بلاد الأناضول ، ويثني عليها ثناء مستطاباً ، وكانوا يسمون بالأخية الفتيان (١) ، قال ابن بطوطة « وهم بجميع البلاد التركمانية والرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعة وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً ، ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافة لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخي ، ولم أر في الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر ، وأعظمهم إكراماً له وشفقة عليه .. »

ومن ثم نرى أن الفتوة الإسلامية قد تطورت إلى نظام اجتماعي إنساني أشبه ما يكون بنظام الماسونية من جهة ، وبنظام التعاون الاجتماعي من جهة أخرى ، كما نرى أن الفتوة الإسلامية قد تغلغلت في البلاد الإسلامية وانتشرت بين الطبقات ، ولو كان هناك القائد المنظم الذي يعمل لاستغلال تلك الجماعات على وضع محدد الهدف والغاية لأجدت كثيراً من الخير على العالم الإسلامي ، ولكنها انتهت في آخر الأمر إلى ما يشبه نظام الزوايا الذي وضعه الصوفية ، ويظهر أنها تلاشت في هذا النظام على مر السنين .

على أننا نرى في العصور المتأخرة نظاماً شاع بين الطبقات ، وهو الذي عرف في البلاد العربية « بمشيخة فتوة » وهو نظام كان يقوم على قوة الساعد والعضل ومزاولة بعض الأعمال الرياضية والفروسية .

وبعد ، فهذه صفحة من تاريخ الفتوة الإسلامية ، عرضناها على القراء مجملة ، لأن المقام لا يحتمل الشرح والتفصيل ، ولعلنا نعود في فرصة أخرى إلى تجلية بعض النواحي في هذا الموضوع الذي عني به المستشرقون أكثر مما عني به أبناء العروبة .

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) واحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم الى نفسه .

اللغة العربية تصارع (١)

للأستاذ وديع فلسطين

في مفتتح هذا القرن كان النشء يلحقون في معاهد مصرية خاضعة لوزارة المعارف المصرية (أو نظارة المعارف كما كانت تسمى) فلا يدرسون العلوم والرياضيات إلا بلغة أجنبية تلبية لرغبة المستعمرين ووكيلهم الداهية دنلوب .

بيد أن سعد زغلول باشا لم يكد يتقلد مهام وزارة المعارف في العام السادس من القرن العشرين حتى هبَّ هبَّته المدوّية ، وأعلن ثورته وعصيانه على أساليب التربية ولا سيما تدريس العلوم باللغة الإنجليزية . وعلى حين غرّة طالع سعد بني وطنه بقراره الانقلابي ، وعمم لغة الضاد بين جدران المعاهد ، فأصبحت أداة التعبير والتلقين .

وليست هذه المهمة مُيسرة كما قد يخال البعض ، بل كانت تنطوي في تضاعيفها على تبعات شتى ، لعلَّ أبرزها تبعة توفير عدد صالح من الأساتذة يمهد إليهم في شقِّ الطريق واستحداث طائفة من الكتب باللغة العربية تخلف زميلاتها الإنجليزية ، وإعادة النظر في برامج التعليم على ضوء التجديد المستحدث .

فكانت هذه أول معركة ربحتها اللغة العربية في ساحة صراعها ، وعقد لواء الظفر فيها لزعيم سياسي تخلد الذكرى ، أبت عليه مصريته وأبت عليه قوة شكيمته أن يلين للبناة ويدعهم يسممون الفكر ويسيئون التربية والإعداد .

* * *

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أي في عام ١٨٧٥ تقرر في اللائحة الرسمية للمحاكم المختلطة استخدام اللغة العربية في المحاكم المختلطة بوصفها لغة رسمية مع قرينتين أخريين هما الفرنسية والإيطالية . ولكن عادة المحاكم جرت على اختيار اللغة الفرنسية لغة موحدة في مخاطباتها وإصدار أحكامها ، وغضَّت الطرف عن سائر اللغات الأخرى .

ودرجت سفينة المحاكم المختلطة على السير في هذا المنوال حتى هلَّ شهر فبراير من عام ١٩٣٤ وفيه عُين الأستاذ الدكتور عبد السلام ذهني بك مستشاراً في محكمة الاستئناف المختلطة . وعزَّ على القانوني المصري أن يرى لغة بلاده تهدر ويضرب عنها صفحاً ، فعمد عند كتابة أول حكم له إلى كتابته بالضاد وتقديمه بعد ذلك إلى رئيس الدائرة البلجيكي ليمضيه . فبهت القاضي واستماذ بالله ، وقال إن مجد المحاكم المختلطة يؤذن بالأفول ونجمها في طريق الخبو . وكان لهذه الحادثة صدى مدوّ أفضى إلى أن يتعاضد الأجنبيون من رجال المحكمة معاً ويحولوا دون مضي الفقيه المصري فيما اختطه لنفسه من سبيل .

بيد أنه لم يحل عام ١٩٣٧ حتى شهد إمضاء اتفاق مونترو الذي قرر إلغاء الامتيازات وجعل العربية اللغة الرسمية القضائية المكفولة المقام ، ونطق الأحكام في الجلسات مشافهة بلغة يعرب وبلغة الفرنسيس .

فكانت هذه ثاني معركة صارعت فيها اللغة العربية على يد فقيه مقدام فكان التوفيق حليفها .

* * *

وقبل خمسة أعوام ، أي في شهر أغسطس من عام ١٩٤ كان على رأس وزارة الشئون الاجتماعية شاب كفء ذو جرأة فهاله ما رأى وما سمع عن امتهان لغة البلاد في الشركات ودور الصناعة الأجنبية في أديم مصر ، وصمم على رد الاعتبار للغة العرب وصون حقوقها ومقامها .

فاستصدر معاليه — وكان الأستاذ عبد الحميد عبد الحق — مشروع قانون لتعميم اللغة العربية في دور الشركات الأجنبية وجعلها اللغة الأصيلة وما عداها دخيلاً لا يعوَّل عليه . فكانت هذه الخطوة مثار تعليق متباين من الدوائر الأعجمية ، ولكنها أجمعت جميعها على استنكارها .

غير أن الوزير الشاب مضى متجلداً صوب هدفه حتى أقرَّ مجلسا البرلمان القانون وأصبح واجب الاحترام مكفول النفاذ وتحدَّث صاحب المشروع عنه قائلا « إنني أرى أن لا فضل لي في هذا القانون لا من حيث الفكرة ولا من حيث صدوره ... أما فيما يتعلق بالفكرة ، فهي فكرة كل مصري . وأما فيما يختص بصدوره فالفضل في ذلك إلى التمسك بحقوق البلاد »

(١) لأرد الفضل لصاحبه أقرر أن صاحب فكرة هذا المقال هو الأستاذ الصديق سيد قطب . (وديع)

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩٥٧ — إنما سرقت مال ربي

فى (رفع الإصر عن قضـاة مصر) لابن حجر العسقلاني : حكي على بن سعيد فى تاريخه أن رجلا سرق قنديلا من الجـامع العتيق ، فرفع للقاضي ، فرفعه للحاكم ، فقال له : ويلك ! سرقت فضة الجامع ؟

فقال : إنما سرقت مال ربي ، وأنا فقير ، ولي بنات جياع ، والإنفاق عليهن أفضل من تعليق هذا فى الجامع .

فدمعت عيناه ، ورفقه القاضي عليه ، فأمره بإحضار بناته ، فحضرن فأمر القاضي أن يجهزن بثلاثة آلاف دينار ، ويزوجن ، وأعاد القنديل إلى الجامع .

٩٥٨ — ... فأمهلته إلى شوال

فى (تتمة اليتيمة) لأبي منصور الثعالبي :

أنشدني الشيخ أبو بكر لأبي نصر كاتب ابن قحطان صاحب اليمن فى محمد بن حوشب[1] ، ولم أسمع فى معناه أظرف منه :

قيـل لي : ما أفدت ممن إليـه صرت تحدو قلائص الآمال ؟
قلت : جئناه فى شهور شراف وهـو فيها بنسكه ذو اشتغال
والفتى لا يجود إلا على السكر (٢) فأمهلته إلى شــــوال

٩٥٩ — الطبيعة إذا وجدت طريقاً استغنت به عن طريق ثانٍ

شرح النهج لابن أبي الحديد : اعلم أن الناس اختلفوا فى ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهل الملل من المسلمين واليهـود والنصارى إلى أن مبـدأ البشر هو آدم الأب الأول ، وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك ، أما الفلاسفة فزعموا أنه لا أول لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع ، وأما الهند فمن كان منهم على رأي الفلاسفة فقوله ما ذكرناه ، ومن لم يكن منهم على رأي الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يثبت آدم ، ويقول إن الله (تعالى) خلق الأفلاك وخلق فيها طباعاً محركة لها بذاتها ، فلما تحركت وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفلك المتحرك أسخن وألطف ، والبعيد أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصر ، وتكونت منها المركبات . ومما تكون منها

(١) وردت « حوشب » فى الطبعة بالسين وهى بالشين .

وبسن هذا القانون أضحت لغة العرب سيدة اللغات فى مصر وأمكنها أن تصرع أترابها فى الميادين الرسمية .

* * *

بيد أن العربيـة ما فتئت تتعثر فى المجتمعات وفى الأندية ودور المرح وبيوت ذوي الأحساب والأنساب . ولا يزال عليها أن تواصل كفاحها بغير هوادة لتثبت أقدامها وتعزز مرتبتها .

فإذا جلست فى فندق من فنادق الحاضرة المصرية ، تناهت إلى أذنيك « بقايا » كلمـات عربية مختلطة بلهجات أجنبية ، أو سمعت لغة فرنسية تتريث بين أوان وآخر لتزج بين ثناياها بكلمة عربية أو تعبير من تعبيرات الساعة .

وإذا زرت بعض البيوتات ، رأيت الفتيات العذارى يؤثرن لغة أجنبية على لغة المهد ، ويتراسلن بها فى أحاديثهن فى زهو وخيلاء

وإذا قصدت بعض الشركات الأجنبية ذات النفوذ القوى أو التى يسندها نفوذ قوى ، رأيت اللغة العربية منزوية فى ركن من الأركان لتفسح لغتين أو لثلاث من اللغات الأعجمية مجال المحادثة والمكاتبة والمحاسبة .

إن اللغة العربية تصارع صراعاً عنيفاً ، تتعرض حيناً للبوار فى بعض الدور ، ولـكنها سرعان ما تنهض من كبوتها ، وتحاول الأيام أن تنال من جاهها فتفلح آناً ولـكنها لا تفتأ حتى تسترد عزها

صراع مستمر كصراع الليل والنهار ، ولـكننا إذا استشففنا من تجارب الماضي مآل اللغة العربية فى المستقبل ، بتنا مطمئنين إلى ظفرها فى النهاية ، وهى نهاية قريبة بإذن الله ...

وديع فلسطين

نوع البشر كما يتكون الدود في الفاكهة واللحم ، والبق(١) في البطائح والمواضع المعفنة ، ثم تكوّن بعض البشر من بعض بالتوالد، وصار ذلك قانوناً مستمراً ، ونسى التخليق(٢) الأول الذى كان بالتولد . ومن الممكن أن يكون بعض البشر في بعض الأراضى القاصية مخلوقاً بالتولد ، وإنما انقطع بالتوالد لأن الطبيعة إذا وجدت طريقاً استغنت به عن طريق ثان .

٩٦٠ — أبو العتاهية . . .

الأغانى : محمد بن أبى العتاهية : قال : لما قال أبى في عتبة :

كأن عُتّابة من حسنها ... دمية قس فتنت قسها

يا رب ، لو أنسيتنيها بما ... في جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة وقال : يتهاون بالجنة ، ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون . وشنع عليه أيضاً بقوله :

إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وقال أيضاً : أيصوّر الحور على مثال امرأة آدمية ، والله لا يحتاج إلى مثال ، وأوقعه هذا على ألسنة العامة ، فلقى منهم بلاء .

٩٦١ — ... وإلا فالطفل مسلم

في (طبقات الشافعية الكبرى) للسُّبكى : أبو عبيد بن حربوية كان يرى أن الطفل إذ أسلمت أمه دون أبيه لا يتبعها في الإسلام ، وإنما يتبع الأب ، وهو رأى شيخه أبى ثور ، فأسلمت امرأة ذمية ، ولها ولد طفل ، ولم يسلم الأب ، ومات ، فدس على أبى عبيد من يسأله ، فتفطن إلى أنه إن فعل ذلك (أى إن حكم ببقاء كفر الطفل تبعاً لأبيه) قامت عليه الغوغاء . ونصحه أبو بكر (الإمام الجليل ابن الحداد المصرى) وقال له : لا تعمل بهذا ، وإياك والخروج فيه عن مذهب الشافعى ، فإنك إن فعلت ذلك نالك

(١) يعنى بالبق البعوض .

(٢) التخليق لفظة مولدة وردت في تفسير الرازى ج ٢ ص ٣٤٧ ، وج ٣ ص ١٣ و ١٨٤ : وأعلام الموقعين ج ٤ ص ٢٣١ ، وتفسير الألوسى ج ٤ ص ١٩٢ .

الأذى من الخاصة والعامة . وعلم أنه إن لم يفعل خرج عن معتقده . فلما جلس أبو عبيد في الجامع اجتمع الخلق بهذا السبب المبيَّت عليه بليل ، وقام رجل على سبيل الاحتساب ، وقال : أيد الله القاضى ! هذه المرأة أسلمت ولها هذا الطفل ، فيكون مسلماً أو على دين أبيه ؟ فقال : أين أبوه ؟ — وقد كان علم أنه مات — فقالوا : مات ، فقال: شاهدين يشهدان أنه مات نصرانياً وإلا فالطفل مسلم. فكثر الدعاء له والضجيج من العامة ، وستر علمه بفهمه . . .

٩٦٢ — من أحاديث الزهر

في (الفصول والغايات) لأبى العلاء :

قالت البهارة لصاحبتها : ودعيني ، فالبارحة طلت ولم أنتعش ، ما أقربَ منى قدمَ واطىء أو كفَّ جان !

* * *

قالت الوردة لأختها : ما أشوقنى إلى الماء !

قالت : ورقك يهف ، والنسيم راكد ، ستروين ولو من أدمع كئيب . . .

٩٦٣ — إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

في (الموافقات) للشاطبي: حكى أبو عمرو الدانى في طبقات القراء له عن أبى الحسن بن المنتاب قال : كنت يوماً عند القاضى أبى إسحاق إسماعيل بن إسحاق ، فقيل له : لم جاز التبديل على أهل التوراة ، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال القاضى : قال الله (عز وجل) في أهل التوراة «بما استحفظوا من كتاب الله» فوكل الحفظ إليهم ، فجاز التبديل عليهم . وقال في القرآن : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فلم يجز التبديل عليهم . قال على (أبو الحسن ابن المنتاب) فمضيت إلى أبى عبد الله المحاملى فذكرت له الحكاية ، فقال : ما سمعت كلاماً أحسن من هذا(١) .

(١) قال الشاطبي في الموافقات : أما القرآن الكريم فقد قيض الله له حفظة بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأطفال الأصاغر فضلا عن القراء الأكابر ... وبعث الله من عباده قراء أخذوا كتابه تلقياً من الصحابة ، وعلموه لمن يأتى بعدهم حرصاً على موافقة الجماعة في تأليفه في المصاحف حتى يتوافق الجميع على شىء واحد ، ولا يقع في القرآن اختلاف من أحد من الناس .

من أناشيد الحرية :

إلى أبنـــاء الجنوب ...

للأستـــاذ محي الدين صابر

مشى على القيد آباء وأبنـاء   فى السجن ينفضهم برد وظلماء
والجوع يأكلهم والعرى يلبسهم   يضج فى روحهم جهد وإعياء
والذل يدفن فى جبهاتهم أمماً   راحوا إلى المجد غلابين أو جاءوا
ترتد أنفاسهم فى القيد ضارعة   تكاد تنكر أن القـوم أحياء
مهدَّمون مساكين الخطى رزق   كأنهم فى يد الجلاد أشلاء !
خمسون عاماً مشت فينا دقائقها   كالجيل فيه مصيبات وأرزاء !
تغلى الدماء على أحقادهن بها   وتستجيش من الثارات أحشاء
فاليوم حين يهد السجن مقتتل   ويحطم القيد ثوار ... أشداء
واليوم حين يفيض الفجر من دمنا   وحين تمتد آفاق وأجـــواء
وحين نحشد فى التاريخ مقدرة   لهـا إلى الخلد إسراء وإفضاء
وحين ينتقم الوادى لوحـدته   وحين يثأر فى الساحات فداء
من يخطب المجد لا يبخل بتضحية   وإن تكن دمه فالمجد حسناء !

يا نيل شـعبك ، أبطال وآلهة   لهم على الدهر شارات وسيماء
كم راية لك مثل الشمس ظافرة   سمى بها ظافر ، للنار مشاء ؟!
وكم هياكل مثل الليل خاشعة   أطال فيهن سجاد ودعـاء !
حبا عليك الزمان الطفل تنشئه   حتى نمت منه أحيان وآناء !
أما الحياة فكانت فـكرة ومنى   وأنت مجد وأحداث وأنباء !
أسميتها ! وتجرت الشوق فى دمها   وقمت تحنو عليها وهى عذراء
يانيل ! ياساحر الوادى وسامره   كأنما أنت فى الشطآن صهباء
على النخيل ابتهالات وأخيلة   وفى الخمائل أنغام وأصداء !
وأنت حلم على الضفات مبتهج   وخاطر ملهم الابداع ... وشّاء
وشيتهن : لحقل مترف خضل   وجنة طلة الأفناء ... لفاء
استبق ماءك تهتز الظلال به   فاليوم ساعة لا ظل ولا ماء !
فأنت تنبت للزاضين ما بذروا   يغله لهم خصب ... وإنماء
والدم ينبت للفادين معجزة   وخير ما استنبتوا ، مجد وعلياء
ونحن نوشك أن نجنى فقدرويت   حرية ضخمة الأعلام حمراء

تسع وعشرون مليوناً لو احتشدوا   لأعجزوا الموت والأقدار لو شاءوا
لنا إلى مهبط الوادى ومطلعه   من صحوة الشوق حنات وإصغاء
وللكفاح وراء البحر منسرب   تهزنا منه أقباس ... وأضواء
وإن تغرب منافى الدماء دم   فللقلوب مع الفادين ... إسراء
بنى الجنوب ! وللايمان غضبته   وللطواغيت ... إزباد . وإرغاء
وللحوادث شدات ومسرة   فينا ... وللظلم تنكيل وإلواء
ماذا فعلتم وقد ألقى القناع لكم   وقد بدت منه أشياء وأشياء ؟
خمسون عاماً وفى السودان صفحته   دم ودمع وأحزان وبأســاء
فنى الجنوب عراة فى كيانهم   ذل وجوع وآفات وأدواء
لا أظلم القوم قد أهدوا لهم صلبا   يمشى بهن على الأهوال أنضاء
وفى الشمال ... جنايات تنظمها   يد تنكل بالأحرار ، نكراء
فقيد الفكر : لا صوت ولا قلم   حتى الصحافة فهى اليوم شلاء
ومد للدس والإرهاب ظاهها   كأنما عهده : ليل ... وصحراء
فالسيف منصلت والسوط منجرد   والسجن متسع والحكم أهواء

أين الضرائب يجبيها مضاعفة   ولا رقيب له عد وإحصاء !
ما فاته فى القرى نبت ولا شجر   وفى البداوة لا إبل ولا شاء
والشعب يصرخ يا جهدى ويا عرقى   وأذنه عن صراخ الشعب صماء
يا شعب ! مالك أجر الذل يأخذه   والذل ، يا شعب ، تسليم وإعطاء
فنى المصارف أوراق وأرصدة   وفى القصور .. لذاذات ونماء
ولست تملك إلا أن تقول له   «صدقت» إن قال تعمير وإنشاء
سيقرأ الدهر للأجيال قصته   وأنها قصة سوداء .. شنعاء .

بنى الجنوب . فهذا حين محنتكم   وليس تغفر بعد اليوم أخطاء
يلوى بحقكم السجان معتدياً   كأنه منح منه . . وآلاء
يقلب القيد ، كالحاوى على يده   قالوا له : لعبة شمطاء خرقاء !
فى كل يوم يسميه ويصقله   وليس للقيد ألوان وأسماء
فهو « الرفاهة » أحيـانا وآونة
هو « المصير » وإن ينصف « فإفتاء » !
وبين ذلك « مشروع » « وسودنة »
« ومجلسان » وتلميح وإغراء !
فتلك رقصة مذبوح يحاولها   دعوه يسكن له حس وأعضاء
وليبن ما شاء من أوهام باطله   فلم يعد للنوايا السود إخفاء
سيهدم الشعب أعلاه وأسفله   والشعب والشعب هدام وبناء

بنى الجنوب، وقد أبلت طلائعنا ... ولم ترعنا .. أعاصير .. وأنواء
ما حاكم جاءنا والسيف فى يده ... وفى جوانحه حقد وبغضاء
بأى منطق جبار يهددنا ... كأننا (لماليه) .. أرقاء؟!
قولوا له: لن ترى ما بيننا رجلا ... له على صفحة الجلاد إغضاء
فليس يجمل فى التاريخ منزلة ... إن قال: لى فيكم صحب وأعداء!
قولوا له: قال هذا الشعب قولته ... وأنها قولة كالفجر .. بلقاء
هى الجلاء عن الوادى بلا أجل ... ووحدة فى ظلال التاج شماء

بنى الجنوب. لقد أزرى العدو بنا ... وما تزال له فى الظلم .. غلواء
أنحن فى كل حرب مرة سند ... للعاجزين بدا والحرب هوجاء!
فى «طبرق» دمنا يشكو وفى «كرن»
وفى الصحارى حشاشات وأحناء!
حتى إذا النصر واتى. قام يجحدنا ... فيه حليف لنا بالأمس بكاء!
هل كان غاية هذا الجهد ما صنعوا ... من مجلس هو ثارات وشحناء!
للناب خلف القناع الزيف صرصرة
وللمخالب .. توجيه وإيحاء!
هى المطامع إن جاروا وإن عدلوا ... وليس من آفة الأطماع أبراء
وليس فى شرعهم للعدل ناحية ... وللظلامة . والتطفيف إيحاء
كبيرهم فيه حنات ومغتصب ... أما الصغير . فغصوب . ووفاء!
قد ثار بينهم (محمود)(1) فى يده ... وثيقة من كفاح الشعب غراء
كأنما كل لفظ قام ... يرسله ... كتيبة جرة الأبطال شهباء!
نادى بحرية الوادى فأنصفها ... منه جرىء على العادين، أباء
ينازل الخصم إيمانا ومقدرة ... والخصم داهية فى الأرض دهياء
وراح يزأر (إسماعيل(2)) مقتتلا ... كأنه طعنة فى الظلم نجلاء
وحوله من صميم الشعب كوكبة ... حمس، على نوب الأيام أكفاء
إن مال بالرأى ذو ضلع ومختلق ... فما استلان لهم عزم وإمضاء
والشعب فى شرف الأحرار يذكرهم
إن عد من حسنوا فيه، ومن ساءوا!

بنى الجنوب، إذا الحرية اختلفت ... شاراتها فهى تضليل وأغواء!
عدوكم واحد، والقيد مشترك ... إذن، ففيم اتجاهات وآراء؟
هو الدخيل، فإن تحطم سلاسله ... فقد تناصر فى الوادى الأشقاء
الأمر، ما بينهم شورى ومرحمة ... كما يشاءون، تخيير وإرضاء
حرية الشعب إيمان وتضحية ... وقدرة والتزامات ... وأعباء

بنى الجنوب، وفى الفاروق معتصم
كأنه قدر ... بالخير ... مضاء
نذود عن عرش وادى النيل فى شرف
فعرشه قمة فى الشعب عصماء
فاروق كرمه بالعدل فانفسحت ... منه ظلال رحيمات وأنداء
فى عدوتى ملكه شعب يقدسه ... حبا وبهديه رأى منه وضاء

(باريس) **محيى الدين صابر**

عضو بعثة فاروق الأول للسودانيين بفرنسا

(1) النقراشى باشا رئيس وفد مصر الذى قدم القضية

(2) إسماعيل الأزهرى رئيس وفد السودان .

الأدب والفن في أسبوع

استقبال عضوين بالمجمع اللغوى :

احتفل مجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الإثنين الماضى لاستقبال العضوين الجديدين : معالى الأستاذ على عبد الرازق والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ؛ فنى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم وفد على دار المجمع — عدا أعضائه — جمهور غفير من رجال العلم والأدب وبعض السيدات والآنسات . وبعد أن افتتح معالى رئيس المجمع جلسة الاستقبال بالترحيب بالعضوين ، وقف الشيخ عبد الوهاب خلاف عضو المجمع ليقدم الأستاذ على عبد الرازق فقال إنه تثقف فى الأزهر وتتلمذ على الشيخ محمد عبده الذى كان يبث فى تلاميذه إلى الدروس العلمية ، روح الحرية فى التفكير والإصلاح ، وإنه كان يتردد على الجامعة المصرية لتلق المحاضرات عن كبار الأساتذة الأجانب والمصريين ، وكان إلى جانب ذلك يجتمع بالأعلام فى « ندوة آل عبد الرازق » فاجتمع له من كل ذلك مزيج من الثقافة الإسلامية والثقافة الحديثة . ثم تحدث عن جهوده فى الدراسات الإسلامية والأبحاث الأدبية واللغوية . وقد أفاض الأستاذ خلاف فى الحديث عن الإصلاح الدينى الذى دعا إليه الشيخ محمد عبده والذى صاحب إنشاء مدرسة القضاء الشرعى ومعهد الاسكندرية ، كما أفاض فى بعض المسائل الفقهية التى اهتم بها الأستاذ على عبد الرازق .

ثم نهض الأستاذ على عبد الرازق فقال إن أول ما يخطر على البال فى هذا المقام هو ذكرى سلفه الذى حل فى كرسيه وهو المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا ، ورثاه رثاء موجزاً ، ثم توجه بالثناء إلى المجمع الذى حباه بعضويته ، وقال إنه يشعر بالانشراح لرجوعه بذلك إلى مرحلة سعيدة من حياته عقب تخرجه فى الأزهر حين أقبل على البحث فى اللغة العربية وآدابها إذ تصدى لتدريس علم البيان وآداب العربية فى الجامع الأزهر ، وقد جذبته الظروف بعد ذلك إلى أنواع أخرى من الدراسات . وقال إنه كانت تشغله فى تلك المرحلة مشكلات فى النحو وفى البلاغة ، إذ شعر بأن فى القواعد التى وضعها علماء النحو شيئاً من التكلف جعلها معقدة ومتعسرة ، وأنه لا يبعد على من يواصل البحث أن يهتدى إلى استنباط قواعد جديدة للنحو العربى . أما البلاغة فقال إنه وجد علماءها لا يختلفون فى أن الغرض الأول من علوم البلاغة إنما هو اكتشاف الوسائل التى بها يستطيع المتكلم أن يختار الطريقة التى تجعل كلامه فصيحاً بليغاً أى مطابقاً للغرض وحالاً فى موضعه اللائق به ، وذلك هو معنى قولهم فى تعريف البلاغة : إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ولكنا لاحظنا أن أولئك العلماء قد انصرفوا منذ العصور الأولى إلى البحث عن هذه الوسائل ، وتتابعت العصور فإذا مباحثهم قد انتهت إلى أن سر البلاغة قد وقف عند أبواب علم المعانى والبيان والبديع على ما انتهى إليه الجرجانى وما استحدث بعده من بعض أنواع البديع ومن بعض مباحث أخرى ، وكأنهم قد ظنوا أن الكلمة الأخيرة قد قيلت فى هذا الفن . وقال إنه لايشك فى أن بلاغة الكلام لا تنحصر أسرارها فى تلك الأبواب ، وساق شواهد دلل بها على أنهم كانوا كثيراً ما يقفون مبهوتين أمام بلاغتها وروعتها ، فيحاولون أن يردوها إلى باب من أبواب البلاغة المعروفة عندهم فلا يستقيم لهم ذلك إلا على ضرب من التعسف والالتواء .

ثم تلاه الأستاذ عباس محمود العقاد ، فألقى كلمته فى استقبال الأستاذ المازنى ، قال إنى لا أسميها كلمة تقديم فإن المازنى مقدم متقدم بأدبه إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد ، ولكنى أستطيع أن أقول شيئاً جديداً فيما يتصل بى وشيئاً طريفاً فيما يتصل بالمجمع ، لأن صلة المازنى بالمجمع صلة سابقة من جهة أعماله وجهوده وإن طرأت عليها الطرافة من جهة انتظامه بين أعضائه . ثم تحدث الأستاذ العقاد عن صداقته للأستاذ المازنى منذ نيف وثلاثين سنة ، ومشاركتهما فى الأدب والصحافة والتدريس ، ثم عرض للجانب الذى يتصل بالمجمع من أعمال عضوه الجديد ، وهو جانب التمكن من اللغة فى الترجمة والتعبير ، فقال : ولست أغلو — ولا أحجم من التحدى — إذا قلت إننى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر ، أديباً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، ويملك هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً ، ويجيد

منها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة ، ومثل لذلك ببعض ماترجمه المازنى من رباعيات الخيام .

وعرض العقاد لبعض المباحث التى كتب فيها المازنى كالحقيقة والمجاز ، والتجديد والتقليد . إلى أن قال : وقد طاب للمازنى منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله وبجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية وأنكر غناء ما يكتب وينظم ، وقد غالطته أحياناً فقلت له إن هذه البدعة منه ضرب من المكر الحسن ، كأنه أراد أن ينزل عن مكانه ليجلسه عليه الناس ، ولكنه قال فى حصاد الهشيم : « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً » فالأرجح أننى غالطته ، وأن حقيقة الأمر أن المازنى يستخف بعمله وبغير عمله أحياناً لأنه يستصغر حياة الإنسان فى جانب آماد الخلود ومصائر الأقدار ولأنه يقيس ما عمل بما أراد أن يعمل فإذا هو دون ما أراد وإن كان فوق ما أراده عاملون آخرون . وقد هون الخطب على نفسه بسليقة فيه ، وهى أنه استطاع أن يقسم « أنانيته » قسمين متلازمين ، يسخط أحدهما فيتناوله الآخر بالعبث والتعزية ، ويشمخ الشامخ منهما فيغض منه المطمئن الوادع .

ثم وقف الأستاذ المازنى فقال إننى أشعر بما يشعر به الواقف على عتبة قصر لا عهد له بمثله فهو يطرقه متهيباً محاذراً ويدخله متردداً متلفتاً داعياً ربه فى سره أن يستره ولا يفضحه وأن يعينه على أن يبدو لأهل القصر كأنه منهم وإليهم ، فهى حاجة إلى وقت حتى آلف مجمعكم الموقر .

وقال : أصارحكم بأنى أشعر أنى مظلوم ، لو كنتم قلتم اخترناك على عيوبك ولنافيك أمل لقلت قوم أحسنوا الظن وإن أسرفوا فى الأمل فاستوجبوا منى أن أتحامل على نفسى حتى لا أخيب ظنهم ، أما أن أقوم مقام الشيخ أحمد إبراهيم بك ، عليه ألف رحمة ، فهذا هو المحال ، ثم أثنى على سلفه الشيخ أحمد إبراهيم وعلى جهوده العلمية والأدبية إلى أن قال : ليس يسعنى إلا أن أهز رأسى آسفاً لأنى وضعت فى موضع سيظل خالياً وأنا فيه ..

ومما قاله الأستاذ المازنى : إن مرحلة التطور الطبيعى السريع للغتنا قد انتهت من زمان طويل بعد أن صارت لها حروف تكتب بها وقواعد مضبوطة وقوالب مقررة وآداب وعلوم ، بل بعد أن نزل بها القرآن الكريم ودون وحفظ ؛ ومتى استقرت قواعد لغة من اللغات ودونت وصارت لها آداب ، وكتبت بها العلوم ، فإن من العسير تغيير شىء من قواعدها وأوضاعها ، وقد تختلف طريقة الكتابة والهجاء والنطق وتتسع الألفاظ للتعبير أو تضيق ، غير أن طريقة تأليف الكلام على معانى النحو لا تتغير ، وكل ما يمكن أن يحدث هو أن يتسع نطاق اللغة أى أن يكثر محصولها اللفظى ، ويتوسع الناس فى المجاز والاستعارة والاشتقاق تبعاً لدرجة الحضارة فى الأمة ، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى المجامع اللغوية لتتبع حركة الاتساع ومسايرتها وتزويدها بحاجاتها ومطالبها .

أبوها الحارس ؟

أراد الأستاذ المازنى أن يصطنع أسلوب التواضع إذ قال إنه يشعر بما يشعر به الواقف على عتبة قصر . . . الخ ، ولكنى — بغض النظر عن هذا التواضع — أطمئنه وأبشره بما سيلقاه فى القصر من الدعة والراحة .. ولعله يعلم أن المجمع استقبل فى العام الماضى عشرة أعضاء جدد صار بهم أعضاؤه « العاملون » عشرين مخلداً . . . وقالوا يومذاك إن المجمع فى حاجة إلى أولئك العشرة ليستعين بهم على إنجاز أعماله ومواجهة مسئولياته ، ولكن هؤلاء العشرة « عجمعوا » وأخذوا أماكنهم على تلك الكراسى الفخمة إلى جوار زملائهم القدماء . ثم ماذا فعل الأربعون فى العام الأخير وعفا الله عما سلف ؟ ولكن عفو الله أوسع من أن يضيق بالعام الأخير وقد وسع ما قبله !

وعلى ذكر « الأربعين » أسوق الحقيقة التالية :

لاحظ الناس أن نشاط المجمع قل بعد وفاة الشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ حسين والى ، والمطلع على محاضر جلسات المجمع فى حياة هذين المضوين يرى أن أكثر المقترحات من عملهما ، وبقية الأعضاء موافقون .. والتتبع المحصى لما أنجزه من أعمال منذ نشأته إلى الآن يرى أن أغلبها من عمل ذينك الرجلين ، وهما اثنان !

ولا ننقص من أقدار الأعضاء الحاليين ، فهم أعلام مصر فى هذا العصر ، ولكن هل المجمع مقبرة لجهودهم فى داخله ..!

كثيراً ما نسمع من بعض الساخطين : لم هذا المجمع ؟ فيقال : إنه حارس على اللغة . ولكن الساخط يعود فيقول : إن هذا « الحارس » ينام ملء جفنيه ! ولا يبرر وجوده إلا مجرد القول بأنه يحرس اللغة العربية ، فليت شعرى ، أيهما يحرس الآخر .. اللغة أم المجمع ؟ !

عضوان آخران :

وقد عقد المجمع جلسة خاصة فى مكتب الرئيس قبيل جلسة الاستقبال السابقة ، للنظر فى ترشيح أعضاء ينتخب من بينهم عضوان عن العراق وفلسطين . وقد اعتمد ترشيح أربعة ، هم الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى والأستاذ خليل سكاكينى (من فلسطين) والشيخ محمد رضا الشبيبى والأستاذ محمد بهجت الأثرى (من العراق) وقد تقرر أن يجرى انتخاب عضوين منهم واحد عن العراق وواحد عن فلسطين — فى جلسة تعقد يوم الأحد ١١ يناير الحالى .

ترخيص الأهرام :

نشرت الأهرام ، وهى فى مستهل عامها الرابع والسبعين ، نص الصيغة التى كتبت للترخيص بإصدارها سنة ١٨٧٥ ، وهو : « رخصت الخارجية لحضرة سليم تقلا باشا بإنشاء مطبعة تسما (بالألف) الأهرام ، كائنة بجهة المنشية بإسكندرية ، يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية وكذا بعض كتب كمقامات الحريرى وبعض مايتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكمة والنوادر وما يماثل ذلك . وقد أمرت الخارجية محافظ الإسكندرية بعدم المعارضة للمذكور فى إنشاء المطبعة المحكى عنها »

ولا شك أن مقارنة هذا النص الذى كتب منذ نحو ثلاث وسبعين سنة ، بما يكتب الآن ، تقفنا على مدى التقدم الكبير فى أسلوب الكتابة . وقد اتفق أن قرأت هذا عقب ما كتبته عن محاضرة الدكتور طه حسين بك التى قال فيها إننا لم نتقدم فى حياتنا الأدبية عما يقابل ركوب الحر فى حياتنا المادية ، وما أظن أحداً يشك فى أن المدى بين ما يكتبه الآن الدكتور طه مثلا وبين تلك الكتابة أبعد بكثير مما بين ركوب السيارات والطيارات وبين ركوب الحر .

ولست أدرى لم خص كاتب ذلك الترخيص « مقامات الحريرى » .. كأنى به أراد أن يذكر « الأدب » فى جملة ما ستطبعه « الأهرام » والكاتب النحرير يسمع أن مقامات الحريرى من كتب الأدب ، فعبر به عنه . . ولكن هل نشرت الأهرام كتاب مقامات الحريرى ... ؟ لعلها لم تنشر عنه شيئاً فيما مضى من عمرها المبارك .

الزهراء :

كنت قد قرأت فى العدد (٧٥٥) من الرسالة ما كتبه الأستاذ حبيب الزحلاوى فى مسرحية « الناصر » وقد استرعى انتباهى منه قوله فى صدد نقده للمسرحية من حيث ضعف الجانب العربى فيها وغلبة الشخصيات الأسبانية على الشخصيات العربية « ولم يسلم من الضعف من الشخصيات العربية سوى الزهراء زوج الناصر »

ولم تكن الزهراء زوج الناصر ، لا فى أصل التاريخ ولا فى المسرحية ، بل كانت جاريته ، وهى بحكم هذا ليست من الشخصيات العربية .

وإذن يستطيع الأستاذ الزحلاوى أن يقول : لم يسلم من الضعف أحد من الشخصيات العربية فى المسرحية ...

« العباس »

الكتب

الفلســـفة القرآنية

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

حين قرأت كتاب « الله » للأستاذ العقاد ، وقفت طويلا عند بحثه براهين وجود الله وبخاصة عند الأدلة القرآنية ؛ وذلك أنى رأيت العقاد فى أصالته وضلاعته وسعة أفقه قد أجاد أيما إجادة إذ تناول هذا الجانب القرآنى ، وتمنيت يومئذ لو تناول العقاد القرآن كله بالدرس على طريقته هذه ، وها هى ذى أمنيتى صارت حقيقة بهذا الكتاب الذى أقدمه للقارىء فى غبطة عظيمة .

هو « كتاب عن مباحث الفلسفة الروحية والاجتماعية التى وردت موضوعاتها فى آيات الكتاب الكريم » كما يطالعك بذلك عنوانه ، وقد أراد الأستاذ المؤلف أن يبرهن فيه « على صلاح العقيدة الإسلامية أو الفلسفة القرآنية لحياة الجماعات البشرية ، وأن الجماعات التى تدين بها تستمد منها حاجتها من الدين الذى لا غنى عنه ، ثم لا تفوتها منها حاجتها إلى العلم والحضارة ، ولا استعدادها لجارات الزمن حيثما اتجه بها مجراه » .

وفى رأى الأستاذ العقاد « أن القرآن الكريم يشتمل على مباحث فلسفية فى جملة المسائل التى عالجها الفلاسفة من قديم الزمن وأن هذه الفلسفة القرآنية تغنى الجماعة الإسلامية فى باب الاعتقاد ولا تصدها عن سبيل المعرفة والتقدم . وهى لذلك تحقق ضرورة الاعتقاد ، وتمنع الضرر الذى يبتلى به من تصدهم عقائدهم عن حرية الفكر وحرية الضمير ... وليس للعلماء ولا للفلاسفة أن يطلبوا من الدين غير هذا »

بهذا الرأى وبهذه الروح كتب المؤلف كتابه ، وقد أحكم تبويبه لأن موضوعه كله كان قائما فى ذهنه جملة قبل أن يسرد تفصيله ، لذلك لم يدع شيئاً « من جملة المسائل التى عالجها الفلاسفة من قديم الزمن » فبعد أن مهد للبحث بفصلين ممتعين بين فى أولها نظرة القرآن إلى العلم وأورد الآيات التى تدل على أنه « يحث على التفكير ولا يتضمن حكما من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع حيثما استطاع . كالم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان » وبين فى الثانى « أن الحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن تحدث إلا بأمر الخلق المباشر من إرادة الله » أقول بعد ذلك تناول المجتمع بما فيه من الأسرة وشئونها والمرأة ومركزها والطبقات والحكم والأخلاق ، ثم تناول العلاقات الدولية ، ثم تجاوز الأرض وما عليها إلى البحث فى الإله الخالق وتعرض لمسألة الروح والقدر والعبادات ثم اختتم هذا البحث الجليل القدر بفصل فى التصوف وآخر فى الحياة الآخرة .

وبعد ، فهذا كتاب يجب أن تقرأه لتعرف مبلغه من الأهمية ومكانته بين ما ألف فى الفلسفة الإسلامية ، فما يغنى كلام مهما طال فى التعريف به ، ولا نقد مهما استفاض عن فصل واحد منه . وقصارانا أن نتقدم بالتحية للأستاذ الجليل الذى أسدى إلى الفكر الشرقى بكتابه « الله » وإلى الدين الإسلامى بكتابه هذا « الفلسفة القرآنية » صنيعين لا يقدم مثلهما إلا الأفذاذ ؛ وللمكتبة العربية أن تعتز بأمثال هذين البحثين اللذين ينفيان عنا تهمة التقصير .

وحسب المسلم أن يخرج من هذا الكتاب الذى أحدثه عنه ، وفى نفسه أنه « فى هذا العصر الذى تتصارع فيه معانى الحياة بين الإيمان والتعطيل وبين الروح والمادة ، وبين الأمل والقنوط ، تلوذ الجماعات الإسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطىء الملاذ ، لأنها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين من خير ، ولا تحرمها شيئاً من خيرات العلم والحضارة » وهذا ما بينه الأستاذ الجليل أحسن بيان فى هذا الكتاب .

الخفيف

أنات غريب

تأليف الأستاذ حبيب الزحلاوى

شاءت صحيفة يومية أن تعرف كتاب « أنات غريب » فقالت إن مؤلفه الأستاذ حبيب الزحلاوى أودعه حنينه إلى وطنه وأشواقه إلى مغانيه ودياره ، وهذا طبعاً ما يوحيه عنوان الكتاب . وقد تساءلت بعد أن طالعت الأقاصيص التى يتألف منها ، ما معنى هذه التسمية ، لأن العادة قد جرت أن تطلق على مجموعات الأقاصيص عنوان أولها ، أو أبرزها ، أو عدد القصص التى تتألف

منها المجموعة . . ولكني شئت أن ألتمس أسباب إطلاق عنوان « أنات غريب » على مجموعة قصص تجرى حوادث أكثرها بمصر ، والقليل منها ماينتقل بالقارىء إلى غير مصر من بلاد الله ، وخاصة سورية ولبنان ، فهل يجب أن نرى في العنوان تلميحاً مجازياً إلى أن المؤلف غريب بروحه عن هذا المجتمع الذى يعيش فيه ، فهى أنات نفس معذبة كابدت آلاماً تتردد فيها « وجيعة مهذبة » .

ولعل للقارىء أن يتبرم بهذا الإلحاح فى البحث عن تفسير لعنوان شاء مؤلف أن يتوج به كتابه ، وأن يجد فى هذا البحث إرهاقاً له وللمؤلف ...

ولكننى فى بعض الأحيان أتعلق بأمور صغيرة أسعى للكشف عما يقصد بها ، فى حين تفوتنى أمور كثيرة ، أهم منها خطراً ، فلا أحاول فهم أغراضها .

وبعد ، فإن قراء العربية يعرفون الأستاذ حبيب الزحلاوى قاصياً له طريقته فى تأليف الأقاصيص ، وأسلوبه فى سرد الحوادث ، ومذهبه فى وصف الشخصيات وتحليلها ، وأغراضه الاجتماعية التى رمى إليها فى أكثر القصص التى يكتبها . وأذكر أنى قلت كل الخير الذى أعتقده فى أدب الأستاذ الزحلاوى القصصى عندما نشر المجموعة الأولى من أقاصيصه بعنوان « شباب قلب » .

ويجد القراء فى هذه المجموعة القصصية الجديدة « أنات غريب »(1) .

تلك الطريقة نفسها فى سرد وشرح البواعث التى دفعت بأبطال الأقصوصة إلى إتيانها ، والتوسل بهذا الشرح لتحليل نفسية بطل القصة ، كل هذا فى حبكة قوية ، وربطة محكمة ، واسترسال قد يتعدى فى بعض الأحيان حد الأقصوصة .

ولا تخلو أقاصيص الأستاذ الزحلاوى من وصف لحياة المجتمع أو نقد لبعض عاداته ؛ وتستطيع أن تقرأ أية واحدة من هذه الأقاصيص التى تتألف منها هذه المجموعة ، فإنك واجد فيها غرضاً اجتماعياً بارزاً ، فهذه أقصوصة « لقيط » يصور فيها سرياً متزوجاً خفية عن أهله بفتاة يونانية أنجبت له غلاماً ، ولكنها عندما كانت بالمستشفى تضع ابنها ، عرفت أنه تزوج بفتاة مصرية ، وانقطع من زوجته الأولى ، فاضطرت إلى العودة إلى أهلها ، بعد أن أودعت ابنها أحد ملاجىء أبناء السبيل .

وكذلك نجد مثل هذه الأغراض فى أقاصيص « بكارة » و « غاية المرأة » و « الغريق » و « يتيم » وفى أكثر هذه الأغراض نجده..

والأستاذ الزحلاوى فى أكثر هذه الأغراض التى يتوخاها ، ينحى ناحية إنسانية فى عاطفة سليمة وإحساس مستقيم .

ويجب أن نخص بالإشارة أقصوصة « ذكريات » التى وصف فيها بعض أبطال الثورة السورية الأولى ، وقد اجتمعوا بالقاهرة ، وأخذوا يستعيدون ذكريات بطولتهم الماضية ، وما تعرضوا له من أخطار .

ولا يقف أدب الأستاذ حبيب الزحلاوى عند التأليف القصصى ، فإنه نقادة أدبى ، ولعل النقد الأدبى كان أول ما عالجه من فنون الأدب ، إذ تقدم كتابه « أدباء معاصرون » غيره من الكتب . وقد ظهر ميله إلى النقد فى أقصوصة « الدميم » لأنه عرض فيها للحبكة ، والعرض ، والفكرة ، والوحدة ؛ وذكر أنه « ليست قيمة القصة فى المادة التى تتألف منها ، ولا فى كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها فى الكيفية التى تؤدى بها ، سوق عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، وفى صدق الرواية عن الحياة . . . »

وقد اضطر لبيان ذلك ، إلى حشر أقصوصتين فى أقصوصة واحدة ، وهما لارابط بينهما غير فكرة العرض بمهارة وبغيرة مهارة ... وهى حبكة واهية ضعيفة تخرج بالأقصوصة عن جوها الضيق المحدود ، ناهيك عن أنها وسيلة مفتعلة لبيان فضل الأقصوصة الثانية عن الأولى .

تناول الأستاذ حبيب الزحلاوى النقد الأدبى فى شىء من الجرأة وكثير من العنف ، مما جمل له خصومات أدبية قديمة وحديثة كانت إحداها مع أديب له مقامه المرموق فى عالم البحث والأدب والشعر ، والتجديد الذى يحاوله هذا الأديب الفاضل لا يروق الأستاذ الزحلاوى ، وهو حر فى رأيه . وكنت أعتقد أن هذه الخصومة تقف عند حد النقد الأدبى ولا تتعداه إلى التعريض فى إحدى القصص بذلك الأديب . والحق أنى كنت

(1) يقع فى ١٨٥ صفحة من القطع المتوسط ويطلب من « دار التوزيع والنشر » بالقاهرة بشارع إبراهيم باشا رقم ٥٣ والثمن ١٨ قرشاً »

أجل صديق الأستاذ الزحلاوى عن أن يستعمل مثل هذه الوسيلة لينال من أديب نابه لا يرضى هو عن أدبه . . .

ولعلنى بعدث بهذا الاستطراد عن جو الأقاصيص التى ضمها كتاب « أنات غريب » وهو جو خليق بأن يتدبره القارىء

وإذا كان من الخطأ الشائع أن القصص تطالع لتزجية الوقت فإن أقاصيص « أنات غريب » قديرة على أن تساهم فى تبديد هذا الخطأ ، لأنها تجمع بين المتعة والفائدة ، وتثير مسائل اجتماعية جديرة بأن يتناولها الناس بالتفكير والتدبير . وقيمة الكتاب من الناحيتين الأدبية والاجتماعية ، حرية بأن تلفت إليها أنظار القراء ، وتغنيه بالثناء والاطراء ...

(الأسكندرية) صديق شيبوب

على الأثـــير

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

« كان يقال : كلام ذاهب فى الهواء ليقال أنه كلام لا يبلغ الآذان وأنه من باب أولى لا يسلك سبيله إلى الهواء فى زماننا هذا أكثر وأيسر من كل كلام يتلقاه الناس على صفحة القرطاس » ...

عباس محمود العقاد

على الأثير :

أحاديث مختلفة نضدها العقاد فى كتاب واحد وهى تختلف فى الألوان ولكنها تتحد فى عمق الفكرة وصدق المنطق وفى أنها كلمات ألقيت عبر الأثير لتنساب إلى الآذان وتبلغ الناس رسالة فكرية وتحل مشكلاتهم فى أيسر سبيل .

تقلب صفحات الكتاب فتلمس علاجاً لمشاكل الثقافة والاجتماع والتاريخ والوجود والنفس ، وتلمح بعض المناسبات التى يتحدث فيها المسلمون بعضهم إلى بعض حديثاً تدعو إليه صلات الرحم وهذا الود الكريم الذى يؤلف بين القلوب ويوحد بين النفوس ويجعل الحياة إخاء ومودة ورحمة .

أرأيت إلى حديثه عن قادة ثلاثة من قادات الشرق وأعنى بهم الحكيم جمال الدين الأفغانى والشيخ الإمام محمد عبده والزعيم الخالد سعد زغلول ؟ ولو قدر لك الاستماع إلى هذا الحديث أو قراءته خلال صفحات الكتاب لوجدت أن النقاد تسأل عن مكانة الأستاذ الإمام بين زميليه العظيمين اللذين يذكران معه كما ذكر . والرأى عند العقاد أن القيمة الحقيقية لكل منهم تختلف فى التحديد فقد كان محمد عبده مصلحاً دينياً وجمال الدين داعياً عظيماً ، وسعد زغلول زعيماً خالداً ، فهم إذن يتفقون فى بعض خصال وبعض مشارب ، ويختلفون فى أساس الاستعداد .

وأنت ملاق فى كتابه نوعاً جديداً من فلسفة الوجود ، صيغت فى مقال سائغ مشرق الديباجة رصين الأسلوب وهذا فى مقال له دعاه (طفولة الإنسانية) ، يقول فيه : « ما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا ؛ وهو إذن رجل الروح والأخلاق . وما دام الإنسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف الجزاء عليه وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين والثمانين) ...

ولا شك أن هذه فكرة بنى عليها الوجود . وحل سائغ لهذا البناء .

ولننتقل الآن إلى النفس ، وهل هناك أقدر من العقاد على الكتابة عن النفس .

إنه يقول عن الأزمات النفسية التى تعصف بنفوس الأفراد ، وتطيح بهناء المجموع ، وتزلزل كيان الدول : « الأزمات النفسية سببها الحيرة وصعوبة الاتجاه فى طريق دون طريق وعلاجها هو اليقين والإيمان » ...

وهو جد حريص ، يحتاط لما قد يقال ، بل يسرف فى الإحاطة فيزعم نفسه ناقداً وبتخيل ما قد يلقى من أسئلة وما قد يثار من نقد .. فهو يقول إن هذا الحل ليس من اليسر بمكان بل إن فيه صعوبة شديدة ، فلن تستطيع أمة أن تعتنق الإيمان وتثير فى نفسها الطمأنينة وتمضى إلى حيث الأمن والدعة .. بل إن هذا يحتاج إلى أجيال متعاقبة توحى إلى نفسها الثقة والاستقرار .. ولكنى أقترح على أستاذنا الجليل أن يقدم كتاباً تدبجه براعته يبحث فى هذه المشكلة ، وإن كتاباً كهذا ، لا يحتاج إليه الشرق وحده ، بل العالم بأسره .

ولننتقل الآن إلى غصن رطيب آخر مما تحفل به الدوحة ذات الأرج العطر والعبير الفواح ..

إنه لحديث عن الاجتماع ، أو الإصلاح الاجتماعي بالتحديد ؟ والإصلاح الاجتماعي في هـذا البلد كلمات ذات جرس موسيقي ولـكنها كلمات فقط ، لا تذهب عن هذا في كثير أو قليل .

وما دمنا بصدد الكلمات ، فلنلمس رأى العقاد فيما يقول ، فنجد خلاصة حديثه ينتهي بنا إلى نتيجتين لا تضيع في تحصيلهما الدقائق المعدودات ، أولى النتيجتين أن الناس يستسهلون الإصلاح بالمنع والتحريم ولا يفكرون كثيراً في الإصلاح بالعمل والإنشاء ، أما النتيجة الثانيـة فهي أدعى إلى التسلية والراحة لأنها تخفف عنا شيئاً من أعباء الحياة ، وينتهي من هـذا أن مذاهب الإصلاح كورقة اليانصيب الخيرى ، إن أصابت فهي ثروة وإن أخطأت فهي إحسان ..

وكلامه هذا يعيد إلينا صورة من حياتنا النيابية ، ومن تلك المشـاريع الضخام التي تروح في سبات عميق بين اللفات والقرارات . ومن تلك الخطب المسماة خطاب العرش التي تقـول وتقول وتقول .. حتى إذا قذف السهم بالوزارة وأطاح بالكرسي المقدس ورحنا نلتمس مخلفات العهد فلا نجد إلا الأقوال والأقوال والأقوال ...

وهـذا غصن آخر ، فيه فـكرة وفيه منطق وفيه نفاثات من هذا العقل الكبير .

تراه يحدثك عن معنى الثقافة ، فيدير اللفظ رأسك ويتخذ له مئات من المدلولات وعشرات من الإشعاعات والظلال والأضواء

وهل كانت للثقافة معان توضحها .. وهل كانت للثقافة ثقافة أخرى تشرحها .

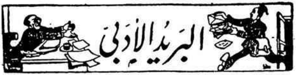
إن العقاد يبتسم .. وأظنه يعرف أن النقاد سيقولون هذا القول ويأخذون عليه هذا المأخذ .. وإنه لقائل في معنى الثقافة إنهـا تنقسم إلى ثلاثة عناوين . مطالب الحس ومطالب الحركة ومطالب التفـكير .

وينتهي من حديثه ، بخلاصة توضحها ، كما تعودنا أن نجد في هذه الأحاديث : فنجده يقول :

« وصفوة القول أن الثقافة هي استحياء عناصر الحياة جميعها ولـكننا نستحييها بالمجهود الذي يلائمها فلا نزيد في بذله عن القصد النافع والقدر الصالح ولا تنسى الفوارق بين الملـكات في تقدير هذا المجهود .. »

هذه صورة سريعة من هذا السفر الحافل ، قد تعطيك فـكرة عن الـكتاب ، ولـكنها لا تعطيك كل ما تريد أن تعرفه فما في مقال كهذا يمكنني أن أعطيك ما تشاء من فـكر وصور وآراء

صبحي شفيق



الأحمدون الثلاثة : المتنبي ، المعري ، شوقي :

— قال : يقول الدكتور زكي مبارك : شـوقي أعظم من المتنبي .

— قال: الدكتور زكي مبارك «يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما»

قال : شوقي يقول :

ولي درر الأخلاق في المدح والهوى ... وللمتنبي درة وحصـــاة

وجاء في الشرح : يريد أن للمتنبي الجيد والرديء من الشعر أما هو فله الجيد دائماً .

— قال : هل قال ذلك في شـبابه ، « إن الشباب جنون برؤه الـكبر » .

— قال لذي الرئاستين [1] العلامة الدكتور محمد حسين هيكل باشا وقت المهرجان في أثناء الحديث عن الشعر والشعراء : شوقي بعد المتنبي .

قال : شوقي بعد أبي العلاء .

— قال : إذا نزعت (غير مجد) [2] من (سقط الزند) [3] فشوقي بعد المتنبي .

قال : لا أحذفها ، كيف أحذفها ؟ لِمَ أحذفها ؟

— قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! شـــوقي إذن بعد أبي العلاء .

(١) هي الرآسة ، وقالوا الرئاسـة والرياسة فكثروا وهمزوا وخففوا ، في اللسان : إن الرياسة تنزل من السماء فيعصب بها رأس من لا يطلبها

(٢) قال لي الفيلسوف التركي المشهور الدكتور رضا توفيق : (لم يقل عربي ولا عجمي في الشرق والغرب في القديم والحديث في معنى هـذه القصيدة مثلها) وأغلب الظن أن الدكتور استند في هذا الحكم إلى استقصاء باحثين في المراثي من العربانيين وإن كان فضل الدكتور لا ينكر ، وهو يعرف أكثر من ثماني لغات إلى علمه .

(٣) هذا ديوان شعره و (اللزوميات) شعر أو غير شعر أو هي فوق الشعر ، وديوانه في الألغاز شعر وغير شعر . قال صاحب (أوج التحري) : « كتاب الألغاز كبير الحجم ، رتبه على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كل بحور الشعر وأعاريضه وضروبه » .

إن الأحامد في القريض ثلاثة :

أحمد الأول (أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي) .

أحمد الثاني (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سـليمان المعري) .

أحمد الثالث (أبو علي أحمد شوقي المصري) .

ذلـكم « قول الحق الذي فيه يمترون » واذكر في الكتاب مع الأحمدين حبيباً ، والوليد ، وعلي بن العباس [1] ، ومحمد بن هاني [2] ، وتمثل بقول أحمد الاول :

كُتبت في صحائف المجد بِسمٌ ... ثم قيس وبعد قيس السلام [3]

(س)

الألفاظ الاصطلاحية في النجوم الزاهرة :

تفضل الصديق الـكريم الأستاذ محمد عبد الغني حسن فأبدى دهشته لورود كلمة « كريمة » بمعنى الأخت في سياق عبارة لصاحب النجوم الزاهرة معتقداً أن الـكريمة هي البنت كما هو متعارف اليوم ...

والحقيقة أن الـكريمة بمعنى الابنة والمخدوم الولد الذكر من اصطلاح الترك وأخذه العامة عنهم فقالوا : كريمة فلان أي ابنته ، وقالوا للولد الذكر مخدوم الخ ...

والـكريمة في اللغة كل شيء يكرم عليك فهو كريمك وكريمتك كما في اللسان مادة كرم ج ١٥ ص ٤١٦ . والـكريمة الأهل وقيل شقيقة الرجل كما في المستدرك على شرح القاموس ص ٤٤ من الجزء التاسع ...

ولـما كان صاحب النجوم الزاهرة تركي الأصل فقد جمع بين العامي والفصيح معاً فسمى أخواته جميعاً كريمات شقيقات وغير شقيقات في كتابه المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ... ذكر أخته عائشة في ترجمـة زوجها الاتابك اقبغا التمرازي الذي مات

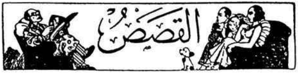
(١) ابن الرومي .

(٢) الأندلسي ، متنبي الغرب .

(٣) رفع بسم لأنه أجرى الـكلمة مع الباء بمنزلة كلمة واحـدة فرفعها . ومن كسر السين في قيس حذف التنوين لاجتماع الساكنين ، ومن نصب ذهب إلى القبيلة فلم يصرفها . ومن قول المتنبي :

ولا تبال بشـعر بعد شـاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وينشد في هذا المقام : (ولا تبال بشعر بعد شعرهم) الخ ..



فينوس برانـــيزا

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ مناور عويس

لم يكن أحد في (برانيزا) كلها يجهل ذلك التلمودي . ولم يكن مرد تلك الشهرة الواسعة إلى حكمته وخوفه الله فحسب ، بل كان لجمال امرأته نصيب كبير في تلك الشهرة إذ كانوا يلقبونها « فينوس برانيزا » وقد نالت هذا اللقب عن جدارة واستحقاق ، فهي فضلا عن جمالها الباهر زوجة بحاثة في التلمود .

وزوجات الفلاسفة اليهود غالباً ما يكن دميمات أو ذوات عاهات جسدية ، وكتاب التلمود يشرح تلك الظاهرة ويفسرها بما يأتي : « إن عقود الزواج تعقد في السماء ، وحين ولادة مولود جديد يعلن صوت سماوي اسم زوجة ذلك المولود — أي زوجة المستقبل ؛ وكما أن الأب الطيب يدع أدوات منزله الثمينة ولا يستعمل إلا الأدوات القديمة مع أولاده ، فهكذا ينعم الله على الرجال التلموديين بنساء لم يأبه لهن الرجال الآخرون ! »

ولعل الله أراد أن يبدل من هذه القاعدة ويخفف من وطأتها ، ليثبتها ، فاختار لصاحبنا التلمودي « فينوسا » فيها من الجمال ما يزيد في فخر العروش ويرفع من قيمة تمثال قائم على قاعدته في متحف ... كانت طويلة القامة ، ممشوقة القد ، جذابة الملامح ، يقوم على كتفيها رأس بديع رائع ، وتتدلى على ظهرها ضفيرتان سمروان غزيرتان ، وتحت أهدابها الطويلة تشع عينان ناعستان نجلاوان .. ويداها .. كأنهما قطعتان من العاج ! ..

وكأنما خلقت لتكون ذات سلطان لها رعاياها وعبيدها يسجدون عند قدميها ، أو لتشغل ريشة فنان أو لتحرك قلم شاعر ! .

لكنها عاشت عيشة زهرة جميلة نادرة في بيت خانق حار . زد على ذلك أنها كانت تجلس معظم نهارها ملتحفة فروها الثمين تراقب الشارع من نافذتها .

عنها بقوله : وقد سألت كريمتي زوجته الخ انظر المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٤ . وذكر أخته فاطمة في ترجمة أبيه تغرى بردى فقال : وكان الناصر فرج قد عقد عقده على ابنته أختي فاطمة الخ . انظر المنهل الصافي ج ١ ص ٣٩٣ . وذكر فاطمة في ترجمة اينال النوروزي أمير سلاح فقال : وتزوج بكريمتي بعد موت زوجها الملك الناصر الخ انظر المنهل ج ١ ص ٢٩٥ . وذكر أخته هاجر وهي شقيقته الوحيدة من أمه وأبيه في ج ١ ص ٣٩٥ فقال عنها في ترجمة أبيه أيضاً : ولدت سنة ٨٠٧ هـ وتزوجت قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني ومات عنها إلى أن قال : توفيت سنة ٨٤٦ هـ وهي التي عبر عنها بكريمتي في الموضع الذي أثار استغراب الأستاذ عبد الغني في النجوم الزاهرة .

وبعد فهذا التعبير عبّر به كثير من المؤرخين كصاحب صبح الأعشى في ج ٦ ص ١٧١ في كتاب لأخت الملك الناصر حسن ، كما عبر به السخاوي وابن العماد في المواضع التي أشار إليها الأستاذ في كلمته ، وكذلك قطب الدين في تاريخ البلد الحرام وغيرهم وغيرهم من اللغويين والكتاب ...

ولعل الصديق الكريم يكون قد عرف موضع الصواب في استعمال هذا اللفظ الاصطلاحي والسلام .

أحمد لطفي السيد

مصحح النجوم الزاهرة

إلى طلاب التوجيهية :

سننشر ابتداء من العدد المقبل فصولا شارحة لما قرر في مسابقة الفلسفة على طلاب السنة التوجيهية للأستاذ كمال دسوقي المدرس بمدرسة المنصورة الثانوية ، فنلفت أنظارهم إليه .

لم يكن لها أبناء . . . وكان زوجها الفيلسوف يجلس مصلياً أو مطالعاً من الصباح الباكر حتى منتصف الليل ولم تكن معبودته سوى « الجمال المقنع » كما يسميها كتاب التلمود .

ولم تكن تعبأ بشؤون المنزل فهى غنية . . وكان النظام سائداً مستتباً كنظام الساعة التى تديرها مرة كل أسبوع .

لم يزرها أحد ولم تخرج لزيارة أحد .. وكانت تجلس تفكر وكأنها تحلم . وكثيراً ما كانت تتثاءب ! . .

وهبت على المدينة ذات يوم عاصفة هوجاء وقصف الرعد وكأنه يلهب المدينة بسياط غضبه . أوى اليهود إلى منازلهم وفتحوا النوافذ ليستقبلوا مسيحهم الموعود !

وكانت فينوس اليهودية جالسة على كرسيها المريح لابسة فروها ترتجف ، وفجأة صوبت عينيها المتوهجتين نحو زوجها الجالس أمام كتابه وهو يتأرجح !

سألته قائلة : أخبرنى متى يأتى المسيح ابن داود ؟

فأجابها : سيأتى عندما يصبح اليهود كلهم صالحين أو طالحين ، هذا ما يقوله التلمود .

— وهل تصدق أن اليهود يمكنهم أن يكونوا صالحين ؟

— وكيف يمكننى أن أصدق هذا ؟

— إذن سيأتى المسيح عندما يصبح اليهود كلهم طالحين .

وهز الفيلسوف كتفيه وتابع القراءة فى كتاب التلمود ، ذلك الكتاب الذى لم يخرج من قراءته رجل صحيح العقل خلا رجلا واحداً !

وظلت المرأة الجميلة تنظر إلى قطرات المطر المنهمر بعينين حالمتين وهى تعبث بثوبها الأسود بأسنانها البيضاء .

وفى أحد الأيام غادر الفيلسوف اليهودى بيته إلى مدينة مجاورة ، إذ كان عليه أن يفصل فى مسألة دينية . . ونظراً لعلمه الواسع فقد حُلت المشكلة بأسرع مما كان يتوقع . . . وعاد مع صديق له أقل منه علماً ! عاد فى نفس اليوم بدلا من أن يعود فى اليوم التالى كما كان مقرراً .

ترك العربة عند بيت صديقه وتوجه إلى بيته سيراً على الأقدام. لم يفاجأ حين شاهد نوافذ منزله مضاءة أو عندما رأى خادماً لضابط يدخن غليونه ببساطة أمام منزله . تقدم إلى الخادم وسأله بأدب ، وبشىء من الفضول : ماذا تصنع هنا ؟ أقوم بالحراسة لئلا يأتى زوج اليهودية الحسناء على غير انتظار .

— حقاً ! . حسناً ! . انتبه وراقب جيداً .

قال هذا وتظاهر بالذهاب ، لكنه ولج البيت من مدخل خلفى . دخل الغرفة الأولى ورأى مائدة معدة لشخصين ، ولاحظ أن صاحبيها تركاها قبل لحظات . وكانت زوجته تجلس كعادتها متدثرة بفروها وكانت وجنتاها محمرتين مريبتين ، ولم تكن عيناها متعبتين ناعستين بل كانتا تحملقان بزوجها وفيهما ترتسم علائم السخرية والرضا ، وفجأة عثرت قدم الفيلسوف بشىء على الأرض أحدث صوتاً غريباً فانتفض وكان الذى عثر به مهمازاً .

— من كان معك ؟

وهزت اليهودية كتفيها ولم تجب

— أأخبرك ؟ كان عندك قائد فرقة الخيالة

— ولمَ لا يكون معى ؟

— أخرجت يا امرأة عن صوابك ؟

— ما زلت مالكة لكل صوابى ، وارتسمت ابتسامة على شفتيها الساخرتين وقالت : ولكن أليس علىّ أن أقوم بدورى كيما يأتى المسيح فيخلصنا نحن اليهود الساكين ؟ !

منور عويس